الفصل الثالث

فن حسان ومنزلته

فنه

أغراضه ومناهجه

عرضنا فى الفصلين السابقين شعر حسان جاهليّه وإسلاميّه عرضاً وافياً ، وقرنا العرض بالتحليل والموازنة والنقد والرأى . وسنحاول هنا إجمال ما سلف ، واستخلاص الرأى فى فنه . وقد أصبح من الميسور أن تراه مجدداً فى فنون الشعر ومناهجه ؛ فقد كان ممن وضعوا أساس النقائض فى الشعر جاهلية وإسلاماً . وسبق إلى الشعر الدينى . وكان هدف تلك النقائض وغيرها من شعره تأييد القبيلة والفخر بها ووصف مرابعها وتأريخ حياتها الخاصة ، أو الكلام عن علاقتها بغيرها فى السلم والحرب ، مع الإشادة بمواقفها وآثارها ؛ والتهوين من شأن عدوها ، مما يصح مع قليل من التساهل أن نسميه سياستها الداخلية والخارجية . ومن شعره الجاهلى فى الأولى قوله[1] :

ولقد تُقَلِّدُنا العَشِيرَةُ أَمْرَها ... ونَسُودُ يومَ النائباتِ ونَعْتَلِى
ويَسُودُ سَيِّدُنا جَحَاجِحَ سادةً ... ويُصِيبُ قائِلُنا سَوَاءَ المِفْصَلِ
ونُحاوِلُ الأَمْرَ المُهِمَّ خِطابُهُ ... فيهِمْ ، ونَفْصِلُ كلَّ أَمرٍ مُعْضِلِ

وقوله[2] :

إذا ما وَلِيدُ الحَىِّ لم يُسْقَ شَرْبَةً ... وقد ضَنَّ عنه بالصَّبُوحِ مَرَاضِعُهْ
وراحَتْ جِلادُ الشَّوْلِ حُدْباً ظُهُورُها ... إلى مَسْرَحٍ بالجَوِّ جَدْبٍ مَرَاتِعُهْ
أَلَسْنَا نَكُبُّ الكُومَ وَسْطَ رِحَالِنا ... ونَسْتَصْلِحُ المَوْلَى إذا قَلَّ رافِعُهْ
فإنْ نابَهُ أَمرٌ وَقَتْهُ نفوسُنا ... وما نالنا من صالحٍ فهوَ واسِعُهْ

(١) ديوانه رقم ١٣ .
(٢) ديوانه رقم ١٢ .

وقوله (١):

لنا حاضِرٌ فَعْمٌ ، وَبَادٍ كأَنهُ شَمَارِيخُ رَضْوَى عِزَّةً وَتَكرُّمَا
متى ماتَزِنَّا من مَعَدٍّ بعُصْبَةٍ وغَسَّانَ نَمْنَعْ حَوْضَنا أَنْ يُهَدَّمَا
نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ مُرُوءتُهُ فينا وإنْ كان مُعْدِمَا

ومن شعره الجاهلى بالأخرى قوله (٢) :

ويَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَّا بِها إذا خافَت الأَوْسَ جيرَانُها
ويثْرِبُ تعْلَمُ أَنَّ النَّبِيـ تَ عندَ الهَزاهِرِ ذُلَّانُها

وقوله (٣):

سأُوتِى العَشِيرةَ ما حاوَلَتْ إِلَىَّ وأُكْذِبُ إِبْعادَهـا
وأَحْمِلُ إِنْ مَغْرَمٌ نابَهـا وأَضْرِبُ بالسَّيفِ مَنْ كادَها
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّا بِها أُسُودٌ تُنَفِّضُ أَلْبَادَهـا
نَهُزُّ القَنا فى صُدورِ الكُمَا ةِ حتى نُكَسِّر أَعْوادَها

وقوله فى رجل من قومه أسرته غسان (٤) :

يَخَافُ أُبَىٌّ جَنَانَ العَدُوِّ ويَعْلمُ أَنى أَنا المَعْقِلُ
فلا تَقْنَع العامَ فى دارِهِمْ ولا أُسْتَهَدُّ ولا أَنْكَلُ
أَبَى لكَ لا مُسْتَجَافُ الفؤا دِ عندَ الهِيَاجِ ولا أَعْزَلُ

ومن شعره السياسى فى الإسلام قوله لقتلة عثمان (٥):

ما نقَمْتُمْ من ثِيابٍ خِلْفَةٍ وعَبِيدٍ وإماءٍ وذَهَبْ

---

(١) الديوان رقم ٤ .
(٢) الديوان رقم ١١٦ .
(٣) الديوان رقم ٢٨ .
(٤) الديوان رقم ٢٢٠ .
(٥) الديوان ٣٢ .

قُلْتُمُ بَدِّلْ ، فقد بَدَّلَكُمْ سَنَةً حَرَّى وحَرْباً كاللَّهَبْ
فَفَرِيقٌ هالِكٌ من عَجَفٍ وفريق كان أَوْدَى فَذَهَب

وقوله لابن الزبعرى بعد غزوة أحد[1] :

ذَهَبَتْ بِابْنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ كان مِنَّا الفَضْلُ فيها لَوْ عَدَلْ
ولقد نِلْتُمْ ونِلْنَا منكُمُ وكذاكَ الحَرْبُ أَحياناً دُوَلْ

هذا إلى ما قدمنا من مثل أخرى فى الكلام على شعره السياسى والدينى[2] .

ولعله من الضرورى أن نشير هنا إلى امتزاج شعر الدعاوة السياسية بشعر الدعاوة الدينية ، لأن السياسة والدين أيام الرسول كانا مختلطين لا تتميز ملامحهما ، فقد كان للإسلام إلى صبغته الدينية صفته السياسية ، وكان صلى الله عليه وسلم ينشر الإسلام وينشئ له أمة . ويقيم به دولة ، وكان يحميه ويحميها ، وفى يده وأيدى خلفائه من بعده اجتمعت السلطتان الدينية والزمنية .

أما فنون القول الأخرى فسنرى حسان فى بعضها وبخاصة الفخر مبتدعاً . فهو وإن التقى بغيره فى كثير من معانيه ، أو شابهه فى مناهجه ، فإنه لم يقصد إلى اتباع أحد فى شىء من ذلك . ولكنه وجد فى قومه عدة الفخر وآلته ، فاستملى منهم صوره وكتب آيته . ولن تجد فى معاصريه من يساميه فخراً ، أو يشعر بحقه فيه شعوره . وإذا كان لمعن بن أوس بعض اتجاه حسان فيه ، فقد كدره حين مدح الناس بما خص به حسان قومه ، وذلك لتأصل طبيعة الفخر فيه ، وعمق إحساسه بأسبابه . ولذلك كان الفخر محور شعره وقطب رحاه ، وغرضه الأصيل وفنه المحبوب ، ومنه امتدت لمحات الجمال إلى شعره . وسرت نفحات القوة والجزالة فى أوصاله .

وقد ظلت الروح الجاهلية فى التفاخر بالأنساب والتعظم بالمآثر غالبة عليه فى فخره الإسلامى وهجائه . وكان يطيل الفخر ويقصّر الهجاء موافقاً بذلك المنهج السديد[3] ، مع وضوح هدفه الهجائى ، وجلاء صوره الساخرة .

---

(١) الديوان ١١ .
(٢) ارجع إلى ص ٤٥٧ وما بعدها من هذا الكتاب .
(٣) العمدة ٢/١٤٠ .

كان حسان غزل الطبع رقيق النسيب ، وإن فاته أحياناً أن يكون كإخوانه الغزلين المشهورين من أمثال المُرقِّش الأكبر ، وطرفة وعنترة ، وقيس بن الخطيم . وقد قل شعره الإسلامى فى الغزل ، ولم يكن هناك فارق بينه وبين غزله الجاهلى ؛ لأنه لم يكن صاحب غزل مكشوف فيهما . وإن أعرض فى غزله الإسلامى عن ذكر المشاهد الغسانية .

وقد أصبحت الغزوات والأحداث والمشاهد الإسلامية موضوع وصفه الإسلامى ، فإذا وصف غيرها مما يعمد الشعراء لوصفه أتى وصفه عرضاً فى أثناء ذكرها .

كان حسان مزْوَرًّا عن المدح والرثاء بطبعه ، حتى جاء الإسلام فمدح ورثى ، ولكنه لم يبلغ فى مدحه ورثائه المدى الذى كان ينتظر منه . وما كنت لتسمع لشعره فى هذين الغرضين رنة جمال ، أو ترى له حسن وقع ، إلا حين يتصل قوله فيهما بما تهوى نفسه من الفخر .

وقد حاول الشعر القصصى محاولة عابرة ، فلم ينفتح له بابه على مصراعيه ، على أن بعض من جاءوا بعده من الشعراء قد حاول محاولته فأفلح ، كعمر بن أبى ربيعة ومهيار الديلمى[1] وغيرهما ، فلحقوا فى ذلك بالسابقين من أمثال امرئ القيس والأعشى ولبيد .

ولعله فى تخصيص بعض قصائده ومقطوعاته بالغزل كان رائداً ومثلا لغيره فيه ، تبعه من بعده شعراء الحجاز كعمر بن أبى ربيعة والعَرْجى والأحوص وعروة بن أُذَيْنَة وغيرهم .

معانيه

كان حسان غزير المعانى خصيب الخيال . وقد يكون اهتمامه بالغوص وراء المعانى الجميلة أكثر من اهتمامه بتخير اللفظ الرائق وإجادة التأليف وحلاوة النغم والإيقاع الموسيقى ، ولا سيما بعد الإسلام ، وذلك أمر مألوف فى عصور التطور والانتقال وأزمان النهضات ، إذ يكون الشغل الشاغل للشعراء والأدباء والمفكرين بيان الأفكار الجديدة ، والكشف عن المعانى والآراء المستحدثة . وبعض معانيه فطرى ،

---

(١) ارجع إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

وبعضها جميل مألوف ، وكثير منها مبتدع مبتكر . ومنها ما يرجع إلى البداوة ، ومنها ما أنبتته الحضارة . وكان يعتمد فى إبراز معانيه على حسن تمثيله للحقيقة وتخليصها مما يشوبها . وجلوها سافرة لا يزحمها غيرها تارة ، وأكثر ما ترى منه ذلك فى الفخر والوصف . ويعتمد على براعة خلقه للصور الفنية الخيالية ، وبخاصة فى الهجاء ، مستعيناً على إبداع هذه الصور وإظهار معالمها بالأدوات المختلفة ، من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل تارات أخر . وقد أمده اتساع أفق خياله بما ضمن له أن يحلق فى سماء هذا الفن . كما طوعت له رحلاته وتأثره بمخالطة الملوك ، وارتياده بلاد الشام أن يأتى فيه بالجديد .

فمن معانيه الفطرية قوله يهجو قيس بن الخطيم :

فقد ذاقت الأَوْسُ القتالَ وطُرِّدَتْ ... وأنت لَدَى الكُنَّاتِ كُلَّ مُطَرَّدِ
تُناغِى لَدَى الأَبوابِ حُورًا نواعماً ... وكَحِّلْ مَآقيك الحِسَانَ بأَثْمِدِ

وقوله يهجو أبا قيس بن الأسلت :

فلستُ لِحَاصِنٍ إنْ لم تَزُرْكُمْ ... خِلالَ الدارِ مَشْعَلَةٌ طَحُونُ

وقوله فى عشيرته :

فإنْ لم أُحَقِّقْ ظَنَّهُمْ بتَوَعُّدٍ ... فلاسَقَت الأَوْصَالَ مِنّى الرَّوَاعِدُ

وقوله فى تهديد قتلة عثمان :

إنْ لم تَرَوْا مَدَدًا له وكَتِيبَةً ... تَهْدِى أَوائلَ جَحْفَلٍ جَرَّار
فعَدِمْتُ ما وَلَدَ ابنُ عَمْرٍو مُنْذِرٌ ... حتى تُنِيخَ جُمُوعُهُمْ بِصِرَارِ

وقوله فى التهديد بفتح مكة :

عَدِمْنا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ

وقوله فى الليلة الظلماء :

وتَحُولُ دونَ الكَفِّ ظُلْمَتُها ... حتى تَشُقَّ على الذى يَسْرِى

فتعييره قيساً بالتجائه إلى الكنات ، ومناغاته الحور لدى الأبواب ، واصطناعه

الكحل . وانتفاؤه من شرف أمه وحصانتها إن لم ينزل بالأوس ما تهدّدهم به . ودعاؤه على نفسه إن لم يكن عند ظن عشيرته ، ودعاؤه بفقد أهله وعدم خيله إن لم يتحقق ما توعد به قومه ، ووصفه شدة الظلام بأنها تحجب الكف فلا ترى . كلها معان فطرية تداولها الناس من قديم ، ولا يزالون إلى اليوم يتداولونها .

أما صدق تصويره للواقع فمن جميل قوله فيه[1] :

فوقفتُ بالبَيْداءِ أَسأَلُها ... أَنَّى اهتديتِ لمَنْزِلِ السَّفْرِ
والعِيسُ قد رُفِضَتْ أَزِمَّتُها ... مما يَرَوْنَ بها من الفَتْرِ
وعَلَتْ مَسَاوِئُها مَحَاسِنَها ... مما أَضَرَّ بها من الضُّمْرِ
كنا إذا رَكَدَ النهارُ لَنا ... نَغْتالهُ بِنجائبٍ صُعْرِ
عُوجٍ نَوَاجٍ يَغْتَلِينَ بنا ... يُعْفِينَ دونَ النَّصِّ والزَّجْرِ
مُسْتقبِلاتٍ كلَّ هَاجِرَةٍ ... يَنْفَحْنَ فى حَلَقٍ من الصُّفْرِ
وسَمَا على عُودٍ فعَارَضَنا ... حِرْباؤُها أَوْ هَمَّ بالخَطْرِ
وتَكَلَّفِى اليومَ الطويلَ وقد ... صَرَّتْ جَنَادِبُهُ من الظُّهْرِ

فإنك لا ترى فى هذه الأبيات إلا صورتين صادقتين . أولاهما للركب فى البيداء ، والعيس قد أضناها السير وأصابها الكلال . وغلبت مساوئها من الضمور محاسنها فأرخيت أزمّتها ، بعد أن أمن السَّفْر من الضعف حيث سعيها وجريرة نشاطها . والأخرى لركب آخر على النجائب القوية النشيطة السريعة ، يقطعون بها طول النهار ، فلا تحوجهم إلى حثها أو زجرها ، تستقبل الهاجرة وهى ترمى بأخفافها حذة ونشاطاً ، وحرّ الصحراء يذيب دماغ الضب من شدته ، وقد سما الحرباء على عود يحمى نفسه وقدة الشمس ، وصر الجندب فى الظهيرة من شدة الرمضاء . وهما صورتان من الكلام تجلوان هذه الحقائق . وتدلان على ما يريد الشاعر بأوضح مما تدل لوحتان أعمل فيهما ريشته وألوانه مصور بارع .

ومن شعره الذى يمثل صدق عرضه للفكرة ، معتمداً فيه على الواقع المجرد يجلوه ، ذلك العرض التاريخى لقدوم قومه من اليمن إلى المدينة إذ يقول[2] :

---

(١) الديوان رقم ٨ . (٢) الديوان رقم ١٦ .

وكانوا مُلوكاً بأَرْضِيهِمُ يُبَادُونَ غَضْباً بأَمرٍ غَشِمْ
فأُنْبُوا بِعادٍ وأَشْياعِها ثمودَ وبعضِ بَقَايَا إِرَمْ
بيثربَ قد شَيَّدُوا فى النَّخِيـ ـلِ حُصُوناً ودَجَّنَ فيها النَّعَمْ
فساروا إليهمْ بأَثقالِهِمْ على كُلِّ فَحْلٍ هِجَانٍ قَطِمْ

وفى هذه القصة من المعانى والصور الكلامية ما يبين لك ما كان عليه أهل المدينة من حياة ، وكيف سار إليهم عرب الجنوب ، وأين أناخوا حين أشرفوا على يثرب ، وما صنعوا فى الزحف عليها ، وحال المغيرين ، وهيئة المنهزمين ، وما آل إليه أمرهم بعد ذلك — بياناً شافياً ، كأنما يطالعك به شريط خيالة .

ولحسان عرض جغرافى للمدينة يصف أحوالها الطبيعية ، من موقعها وتربتها وزروعها ومياهها وآطامها وخيلها وسوائمها ، وما يحميها من الأسياف والرماح ، لم يجنح فيه إلى خيال . ولم يستمل إلا الواقع ، ولم يستخدم إلا المعانى الطبيعية دون تزويق أو مبالغة ، وذلك فى قوله[1] :

لنا حَرَّةٌ مَأْطُورَةٌ بِجِبالِها بَنَى المَجْدُ فيها بَيْتَهُ فتَأَهَّلاَ
بها النخلُ والآطامُ ، تَجْرِى خِلالَها جَدَاولُ ، قد تَعْلُو رَقَاقاً وجَرْوَلاَ

ومن جميل تصويره للواقع مستعيناً بالتشبيه قوله يصف الصحراء فى عبوس وحشتها ، وظلام ليلها ، وزُقاء بومها ، ورهبة سُرَاها[2] :

والليلةَ الظلما أُدْلِجُها بالقومِ فى الدَّيْمُومَةِ القَفْرِ
يَنْعَى الصَّدَى فيها أَخاهُ ، كما يَنْعَى المُفَجَّعُ صاحِبَ القَبْرِ
وتَحولُ دونَ الكَفِّ ظُلْمَتُها حتى تَشُقَّ على الذى يَسْرِى

ومع أن هذا الشعر جاهلى فإنك ترى فى قوله «وتحول دون الكف ظلمتها» ، موافقة معنوية لما جاء به القرآن فى قوله : « حتى إذا أخرَجَ يدَهُ لَمْ يكدْ يرَاها » كما نرى فى قوله بالقصيدة نفسها « يوم الخروج » من بيته :

---

(١) الديوان رقم ٦ .
(٢) الديوان رقم ٨ . وقد تقدم شرح هذا الشعر كله .

وَلَأَنتِ أَحسنُ إِذْ بَرَزْتِ لنا يومَ الخُروجِ بِساحَةِ القَصْرِ

موافقة لفظية للتعبير القرآنى فى قوله تعالى: « ذلك يوْم الخروج » مما يدل على أنه كان فى بيئة ساعدته على تهذيب معانيه وألفاظه، والاتجاه بها إلى المستوى الذى ارتضاه القرآن .

ومن قوله فى الفخر بجود قومه وسيادتهم[1] :

إذا اغْبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وأَمْحَلَتْ كأَنَّ عليها ثَوْبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا
حَسِبْتَ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيوتِنا قَنابِلَ دُهْماً فى المَحَلَّةِ صُيَّمَا
يَظَلُّ لَدَيْها الواغِلُونَ كأَنما يُوَافُونَ بَحْرًا مِنْ سُمَيْحَةَ مُفْعَمَا
لنا حاضِرٌ فَعْمٌ ، وَبَادٍ كأَنهُ شَمارِيخُ رَضْوَى عِزَّةً وَتَكَرُّمَا
لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَا وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

وهذا الجانب من المبالغة الذى تراه فى بعض هذا القول يخفف منه قوله : « حسبت ، وكأن ، وكأنه ، وكأنما » .

ومنه فى وصف ناقته[2] :

مُلَمْلَمَةٌ خَطَّارَةٌ لو حَمَلْتَها على السيفِ لم تَعْدِلْ عن السيْفِ مَعْدِلا
إذا انْبَعَثَتْ مِن مَبْرَكٍ غادَرَتْ بِهِ تَوَائِمَ أَمثالَ الزَّبَائِبِ ذُبَّلاَ
مُرَوَّعَةٌ لو خَلْفَها صَرُّ جُنْدُبٌ رأَيتَ لها من رَوْعَةِ القلبِ أَفْكَلاَ

فهذا القول لا يكاد يدعك إلا وأنت تتمثل هذه الناقة فى خلقتها وسيرها واندفاعها ، وانبعاثها من مبركها ، وما خلفته به من آثارها ، وفى تروُّعها لأقل ما ينوبها ، وهى صور تتعاون كلها على إبراز المعنى الذى يريده الشاعر من ضمورها ونشاطها وشهامتها .

وكما كان حسان غزير المعانى كان خبيراً بها ينزلها منازلها ، فإذا مدح الملوك

---

(١) الديوان ٤ .
(٢) الديوان ٦ .

أتى فى ذلك بما لا يتأتى فى غيرهم . كقوله فى بنى جفنة[١] :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ
يَسْقُون من وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
يُسْقَوْنَ دِرْياقَ الرحيقِ ، ولم تَكُنْ تُدْعَى وَلَا ئِدُهُمْ لِنَقْفِ الحَنْظَلِ
بِيضُ الوجوهِ كريمةٌ أَحسابُهُمْ شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرَازِ الأَوَّلِ

وقد أضاف هنا إلى المدح الصريح الكناية اللطيفة فى قوله : « ولم تكن تدعى ولائدهم لنقف الحنظل » . وقوله : « بيض الوجوه ، وشم الأنوف » .

إلا أنه كانت تندّ عنه بعض معان فى الغزل غير مستساغة ، كما فى قوله[٢] :

أَنَضِيرُ ما بَيْنِى وبَيْنَكُمُ صَرْمٌ وما أَحْدَثْتُ من هَجْرِ
جُودِى فإنَّ الجُودَ مَكْرُمَةٌ واجْزِى الحُسَامَ بَبعْضِ ما يَفْرِي
يَعْتادُنِى شَوْقٌ فأَذْكُرُها من غيرِ مانَسَبٍ ولا صِهْرِ
لو كنتِ لا تَهْوَيْنَ لم تَرِدِى أَو كان ماتَلْوِينَ فى وَكْرِ

وقوله :

سَأُهْدِى لها فى كلِّ عامٍ قصيدةً وأَقْعُدُ مَكْفِيًّا بيَثْرِبَ مُكْرَمَا

وقوله :

فَضَحِكْتُ ثم رَفَعْتُ مُتَّصِلاً صَوْتِى أَوَانَ المَنْطِقِ الشَّغْبِ

ومن تصويره للواقع وصفه جيش المسلمين ببدر الموعد بقوله[٣] :

أَقَمْنَا علَى الرَّسِّ النَّزيعِ لَيَالِيَا بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ المَبَارِكِ

وهى صورة من أجمل الصور وأدقها وأروعها وأصدقها تمثيلا للحقيقة ، وأشدها امتلاء بالحركة ؛ حتى ليخيل إليك معها أنك ترى ذلك الجيش ، وتسير معه ، وتشهد

---

(١) الديوان ١٣ وقد تقدم شرح هذا الشعر كله .
(٢) ارجع إلى نقد هذه القصيدة فى ص ٢٧٠ وما بعدها .
(٣) الديوان رقم ١٦ .

خيله ومطاياه ، وإناخته وسيره ، واكتساحه السبل بما يلقاه فيها من ظباء ونبات وعرفج.

ومن صوره المتحركة وصفه ما تخيّله من إغارة المسلمين على مكة بقوله[١] :

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ
يُبَارِينَ الأَسِنَّةَ مُصْغِياتٍ ... على أكتافها الأَسَلُ الظِّمَاءُ

وقوله في وصف الفرس[٢] :

جَرْدَاءُ تَمْزَعُ في الغُبَارِ كأنها ... سِرحانُ غابٍ في ظِلالِ غَمَامِ
تَذَرُ العَنَاجِيجَ الجِيادَ بِقَفْرَةٍ ... مَرَّ الدَّمُوكِ بمُحْصَدٍ ورِجَامِ

ووصفه لقاء جيش المسلمين والمشركين ببدر[٣] :

غَداةَ كأَنَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءٌ ... بَدَت أركانُهُ جُنْحَ المَغِيبِ
فلاقَيْناهُمُ مِنَّا بِجَمْعٍ ... كأُسْدِ الغابِ من مُرْدٍ وشِيبِ
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٌ ... وكُلُّ مُجَرَّبٍ خَاظِي الكُعُوبِ

قلنا إن حسان كان يستعين على إظهار معالم صوره الخيالية بالتشبيه والاستعارة والتمثيل والمجاز والكناية ، ولعلك رأيت فيما مر من شعره مصداق هذا القول ، وربما كان حسان من القلائل الذين أكثروا من استخدام هذه الأدوات دون تعمد أو قصد ، شأن معاصريه ، وناهيك بما تضفيه على الكلام من حسن ، وما تجلوه فيه من معنى جميل . ومما أحسن التشبيه فيه متأثراً بحياته بين آل غسان قوله[٤] :

كأَنَّ خَبِيئَةً من بَيْتِ رَأْسٍ ... يكونُ مِزَاجَها عَسَلٌ وَمَاءُ
على أَنيابِها ، أَو طَعْمَ غَضٍّ ... من التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ

وقوله[٥] :

بُنِيَتْ على قَطَنٍ أَجَمَّ كأَنهُ ... فُضُلاً إذا قَعَدَتْ مَدَاكُ رُخَامِ

---

(١) الديوان ١ .
(٢) الديوان رقم ٣ .
(٣) الديوان رقم ١٥ . وقد تقدم شرح هذا الشعر كله .
(٤) الديوان ١ .
(٥) الديوان ٣ .

وقد امتزج الخيالان الحضرى والبدوى فى قوله[١] :

بِزُجاجةٍ رَقَصَتْ بما فى قَعْرِها ... رَقْصَ القَلُوصِ براكبٍ مُسْتَعْجِلِ

وقد تجاوز بالتشبيه الدلالة على الحسيات إلى جلاء المعانى التى تكمن وراءها ، فعبر عن جمال العين ، وعما تدل عليه النظرة التى ترسلها فى قوله[٢] :

لها عَيْنُ كَحْلاءِ المَدَامِعِ مُطْفِلٍ ... تُراعِى نَعَاماً يَرْتَعِى بالخَمَائِلِ

ووصف ما تحدثه البغضاء من جفاء، وما تخلفه فى النفوس من آثار بقوله[٣] :

وقَوْمٍ من البَغْضاءِ زُورٍ كأنَّما ... بأَجْوَافِهِمْ مِمَّا تُجِنُّ لنا الْجَمْرُ

يَجِيشُ بما فيها لَنَا الغَلْىُ مِثْلَما ... تَجِيشُ بما فيها من اللَّهَبِ القِدْرُ

وقد جعل التشبيه سبيلا لانتزاع المثل الأعلى من موطنه ووضعه حيث أراد ، فقال :

وَلَأَنْتِ أَحْسَنُ إذْ بَرَزْتِ لنا ... يَوْمَ الخُروجِ بِساحةِ القَصْرِ

مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى المُلوكُ بها ... مما تَرَبَّبَ حائِرُ البَحْرِ

مَمْكُورَةُ السَّاقَيْنِ شِبْهُهُما ... بَرْدِيَّتَا مُتَحَيِّرٍ غَمْرِ

فالدرة التى غالى الملوك بها وتربها البحر دون صاحبته حسناً وبهاء وضياء ، والبرديتان وقد ترعرعتا فى الماء المتحير الغمر ، حتى تمت محاسنهما لا تكادان تشبهان ساقيها بياضاً وصقلا واستواء وامتلاء .

كما اتخذه أداة طيّعة يلح بها على المعنى حتى يقرره ، كما يلح المصور بالتلوين على الرسم حتى يبرزه . استمع إلى قوله فى تمثيل بُعد ما بين قومه وبين أعدائهم فى المجد . وتيئيسه إياهم من التطلع إلى مثل منازل قومه[٤] :

أَلا أَيُّها السَّاعِى لِيُدْرِكَ مَجْدَنا ... نَأَتْكَ العُلا ،فارْبَعْ عليكَ فسائِلِ

---

(١) الديوان ١٣ .
(٢) الديوان ١٧ .
(٣) الديوان ١٤٣ .
(٤) الديوان رقم ١٧ . وقد تقدم شرح هذا الشعر كله .

فهل يَسْتَوِى ماءانِ : أَخْضَرُ زاخِرٌ ... وحِسْىٌ ظَنُونٌ ماؤُهُ غيرُ فاضِلِ
فَمَنْ يَعْدِلُ الأَذْنابَ وَيْحَكَ بالذُّرا ... قد اختلفا ، بَرٌّ يَحُقُّ بباطِلِ
تَنَاوَلْ سُهَيْلاً فى السماءِ فَهَاتِهِ ... سَتُدْرِكُنا إنْ نِلْتَهُ بالأَنامِلِ

وقد اتخذ هذا الإلحاح فى تقرير المعنى وجلائه وسيلة من وسائل النجاح فى هجائه ، فكان يرسم جملة من الصور الخيالية للغرض الواحد ، إمعاناً فى إصابة هدفه وبلوغ غايته ، كما فعل فى هجاء بنى الحارث بن كعب[1] ، وهذيل[2] ، وهوازن بن منصور[3] .

حسان وابن الرومى

وابن الرومى فيما استفاض من تتبعه المعانى وتقصيه صورها وإلحاحه فى تقريرها به مشابه من حسان ، وقد يكون سار على دربه فى هذا فبلغ ، أو تتلمذ عليه فنبغ . استمع إليه يخاطب أبا القاسم التَّوَّزِىَّ الشَّطْرَنجىّ فيقول :

لَكَ مَكْرٌ يَدِبّ فى القومِ أَخْفَى ... من دَبيبِ الغِذاءِ فى الأَعضاءِ
أَو دَبِيبِ المَلالِ فى مُسْتَهامَيْـ ... ـنِ إلى غايةٍ من البَغْضاءِ
أَو مَسِيرِ القضاءِ فى ظُلَمِ الغَيْـ ... ـبِ إلى من يُريدهُ بالثَّوَاءِ
أَو سُرَى الشَّيْبِ تحتَ لَيْلِ شَبابٍ ... مُسْتحيرٍ فى لِمَّةٍ سَحْمَاءِ[4]

ثم استمع إليه يهجو ، فيدعى أن المهجو شىء غير موجود :

قلْ لابنِ بُورَانَ ـ إن كان ابنُ بُورانِ ـ ... فإنَّ شَكِّىَ فيه جُلُّ إيمانى
يا باطلاً أَوْهَمَتْنِيهِ مَخايِلُهُ ... بلا دليلٍ ولا تَشْبيتِ بُرْهانِ[5]
ما أَنتَ إلا خيالٌ طاف طائِفُهُ ... وما هِجَائِيكَ إلا هُجْرُ وَسْنَانِ[6]

---

(١) الديوان ١٠٣ و ١٨٩ .
(٢) الديوان ٦٧ .
(٣) الديوان ١٠١ .
(٤) مستحير : تام آخذ من الجسد كل مأخذ . سحماء : سوداء .
(٥) مخايله : جمع مخيلة وهى ما يتخيل فيه .
(٦) هجر : هذيان .

قد كنتُ أحسِبُهُ شيئاً فأَهْجُوَه حتى أزاحَ يَقينِى فيه حِسْبانِى[1]

ويهجو فيذكر فعل الحظ وكيمياء الجَدّ إذ يقول :

عَجِبَ الناسُ من أَبِى الصَّقْرِ إذْ وَلِـ ـىَ بَعْدَ البَطالَةِ الدِّيوانا

ولَعَمْرِى ما ذاكَ أَعْجَبُ مِنْ أَنْ كان عِلْجاً فصار من شَيْبانا[2]

إن لِلْجَدِّ كِيمياءَ إذا ما مَسَّ كَلْباً أَحالَهُ إنسانا

يفعلُ اللهُ ما يَشاءُ ، كما شا ءَ ، متى شاءَ ، كائِناً ما كانا

وديوان ابن الرومى زاخر بأشباه هذا الشعر فى فنون كثيرة .

عود إلى صوره الشعريه

وما أبدع الصورة التى رسمها حسان للحارث بن هشام إذ يهجوه قائلا :

أَجْمَعْتَ أَنَّكَ أَنتَ أَلْأَمُ مَنْ مَشَى فى فُحْشِ مُومِسَةٍ وزَهْوِ غُرَابِ

ولبنى عابد بن مخزوم بقوله[3] :

إذا قَعَدُوا وَسْطَ النَّدِىِّ تَجَاوَبُوا تَجَاوُبَ عِدَّانِ الرَّبِيعِ السَّوافِدِ

ومن بارع تمثيله وقد مازجته السخرية والتهكم بالمغيرة بن شعبة الثقفى :

لَوْ انَّ اللؤمَ يُنْسَبُ كان عَبْدًا قَبِيحَ الوجهِ أَعْوَرَ من ثَقِيفِ

تَرَكْتَ الدِّينَ والإيمانَ جَهْلا غَدَاةَ لَقِيتَ صاحبةَ النَّصِيفِ

وَراجَعْتَ الصِّبَا وذَكَرْتَ لَهْوًا مِن الأَحْشاءِ والخَصْرِ اللطيفِ

وقد أكثر من الاستعارات ، ومنها :

فنحنُ الذُّرَا مِنْ نَسْلِ آدَمَ والعُرَى تَرَبَّعَ فينا المَجْدُ حتى تَأَثَّلا

بَنَى العِزُّ بَيْتاً ، فاستَقَرَّتْ عِمادُه علينا ، فَأَعْيَا الناسَ أن يَتَحَوَّلا

وقوله :

نُسَوِّدُ مِنَّا كُلَّ أَشْيَبَ بارعٍ أَغَرَّ تراه بالجَلالِ مُكَلَّلا

---

(١) حسبانى : ظنى . (٢) العلج : الكافر من العجم .

(٣) الديوان ٥٥ .

إذا ما انْتَدَى أَجْنَى النَّدَى وابْتَنَى العُلاَ وأُلْفِيَ ذا طَوْلٍ على مَنْ تَطَوَّلَا

وقوله :

ونحن إذا ما الحَرْبُ حُلَّ صِرَارُها وجادَتْ على الحُلاَّبِ بالموتِ والدَّمِ

وقوله :

لِسَانِي صارِمٌ لاعَيْبَ فيه وبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ

وقوله[1] :

رِجالٌ تَهْلِكُ الحَسَناتُ فِيهِمْ يَرَوْنَ التَّيْسَ كالفَرَسِ النَّجِيبِ

ومن كناياته اللطيفة سوى ما تقدم قوله[2] :

وكان أَبو سَرْحٍ عَقِيماً، فلم يَكُن له وَلَدٌ حتى دُعِيتَ له بَعْدُ

وقواه[3] :

لَعَمْرُ أَبِي سُمَيَّةَ ما أُبَالِي أَنَبَّ التَّيْسُ أَم نَطَقَتْ جُذَامُ
إذا ما شَاتُهُمْ وَلَدَتْ تَنَادَوْا أَجَدْيٌ تحتَ شاتِكَ أَمْ غُلامُ

وقوله[4] :

ما أُبَالِي أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيْسٌ أَم لَحَانِي بِظَهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ

وقوله :

رِجالٌ تَهْلِكُ الحَسَناتُ فِيهِمْ يَرَوْنَ التَّيْسَ كالفَرَسِ النَّجِيبِ

وفى شعره متسع لمن شاء أن يتتبع معانيه ويستوعب صورها . ولكن آية عبقريته تتجلى فى وصف المعارك والغزوات التى لم يشهدها : فأحسن تصويرها مملوءة بالحركة ، زاهية الألوان[5] .

---

(١) الديوان ٧١ .
(٢) الديوان ٥٩ .
(٣) الديوان ٢٦ .
(٤) الديوان ٥ .
(٥) الديوان ١ و ٩ و ١١ و ١٤ و ١٥ و ١٦ .

لغته

إنما تكون لغة الشعر جميلة إذا تحقق فيها تجانس اللفظ والمعنى ، فاستعمل اللفظ القوى الضخم للمعنى القوى والمناسبة اللائقة به ، واستعمل اللفظ السهل الواضح فيما يستدعى الرقة ويستوجب السلاسة . مع المساواة بين اللفظ والمعنى فلا زيادة ولا قصور ، وتجنب ما لا يسيغه الذوق الشاعر من الألفاظ الغريبة أو المستكرهة ، وكان للألفاظ مع هذا تآلف فنى وجرس ونغم ، يتحقق معها التأثير الموسيقى الذى هو أخص مزايا الشعر .

ونحن ننظر فى لغة حسان على هذا الضوء فنرى أنه كان فى فخره جزل العبارة فخم اللفظ قوى الأداء ، وكان فى هذا مجارياً المألوف من شعر السابقين ، أمثال السموءل وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر وعبيد بن الأبرص ومن إليهم. وقد رأينا فيما تقدم كيف اتفقت ألفاظ حسان وأوس وزهير وقيس بن الخطيم فى التعبير عن بعض المعانى المشتركة بينهم ، وكيف كان حسان يتخير فى فخره وهجائه الألفاظ المناسبة للمعانى القوية ، والصور السافرة المفحشة ، وبيّنا أثر ذلك فى ذيوع هجائه وشدة وقعه . وكيف كان عذب العبارة فى وصف الخمر[1] ، ينتقى فى الغالب ألفاظ الافتتاح[2] ، وأنه فى بعض غزله كانت تعوزه الرقة وعذوبة اللفظ ، التى هى ركن من الأركان التى يقوم عليها ذلك الفن[3] .

وكذلك كان حسان فى أكثر شعره يتحرى مساواة لفظه ومعناه ، ويتجافى عن الغريب والمستكره من القول ، وبخاصة فى شعره الإسلامى . وكان لشعره فى الجملة ذلك التأليف الموسيقى الذى تستشعر النفوس أثره ، وتسكن إليه ، وذلك الاتساق فى النغم وحلاوة الجرس التى أضلها كثير من شعراء عصره ، فإن شئت أن ترى بين يديك الآن تأييداً لما سلف . مضافاً إلى ما تقدم من الآيات فى شعره ، فانظر كيف يتحدث عن جيش المسلمين فى بدر الآخرة حديثاً رجا أن يصل إلى آذان المشركين ، فتحمل الألفاظ إلى قلوبهم الرعب ، أمينة فى أداء ما تتضمنه من

---

(١) انظر ص ٢٨٥ من هذا الكتاب .
(٢) انظر ص ٣٠٢ من هذا الكتاب .
(٣) انظر ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

معانى القوة والضخامة والتهويل المشاكلة لها . وذلك إذ يقول[١] :

أَقَمْنَا على الرَّسِّ النَّزِيعِ لَيَالِيَا ... بِأَرْعَنَ جَرَّارٍ عَرِيضِ المَبَارِكِ
بكلِّ كُمَيْتٍ جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِهِ ... وقُبٍّ طِوَالٍ مُشْرِفاتِ الحَوَارِكِ
تَرَى العَرْفَجَ العَامِيَّ تَذْرِي أُصُولَهُ ... مَنَاسِمُ أَخْفَافِ المَطِيِّ الرَّوَاتِكِ
إذا ارْتَحَلُوا عن منزلٍ خِلْتَ أنهُ ... مُدَمَّنُ أَهْلِ المَوْسِمِ المُتَعَارِكِ
نَسِيرُ فلا تَنْجُو اليَعَافِيرُ وَسْطَنا ... ولو وَأَلَتْ مِنَّا بِشَدٍّ مُوَاشِكِ
ذَرُوا فَلَجَاتِ الشامِ قدحال دُونَها ... ضِرابٌ كأَفواهِ المَخَاضِ الأَوارِكِ

وسترى أن هذا القول مثل من أمثلة الشعر الجيد لفظاً ومعنى . وشعره فى الفخر جملة صالح لأن يكون دليلا على ما قدمنا .

وانظر إلى حسن التخلص مع براعة التهكم وعذوبة الألفاظ والنغم الموسيقى فى قوله[٢] :

إنْ كُنْتِ كاذِبَةَ الذى حَدَّثْتِنِي ... فنَجَوْتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هِشَامِ
تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ... وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

وانظر كيف يترقق حين يتغزل ويصف الخمر ، وكيف يكون ائتلاف اللفظ والمعنى إذ يقول[٣] :

هل هى إلاَّ ظَبْيَةٌ مُطْفِلٌ ... مَأْلَفُها السِّدْرُ بِنَعْفَىْ بَرَامْ
تُزْجِي غَزالاً فاتِرًا طَرْفُهُ ... مُقارِبَ الخَطْوِ ضعيفَ البُغَامْ
كأَن فاها ثَغَبٌ بارِدٌ ... فى رَصَفٍ تَحْتَ ظِلالِ الغَمَامْ
شُجَّتْ بِصَهْبَاءَ لها سَوْرَةٌ ... من بَيْتِ رَأْسٍ عُتِّقَتْ فى الخِتَامْ
عَتَّقَها الحانُوتُ دَهْرًا ، فقد ... مَرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعَامْ

---

(١) الديوان ١٦ .
(٢) الديوان ٣ .
(٣) الديوان ٢٤ .
(تقدم شرح هذا الشعر كله) .

تَدِبُّ فى الجسمِ دَبِيباً كما دَبَّ دَبًا وَسْطَ رَقَاقٍ هَيَامْ
كَأْساً إذا ما الشَّيْخُ وَالىَ بها خَمْساً تَرَدَّى بِرِداءِ الغُلَامْ

ثم قل لى بالله أين ترى جاهليًّا يقول أحسن من هذا القول ، جمال تصوير ، وعذوبة لفظ ، وخفة ظل ، وحلاوة جرس ، وائتلاف نغم ؟

ثم استمع إلى قوله من هذه القصيدة يصف الناقة ، لتحس وأنت تسمع كأنك فى أرجوحة من ظهرها وهى تتدفق بك فى سيرها ، وكأنك ترى نشاطها وطيشها ، وما يشبه حركات المجنون فى قلقها ودوام تلفتها ، ولتتذوق أيضاً حلاوة تلك الألفاظ المنغمة ، المفصحة أوفى إفصاح عن أدق المعانى التى انطوت عليها . المصورة أصدق تصوير حال هذه الناقة وما حولها ، إذ يقول :

دِفِقَّةُ المِشْيَةِ زَيَّافَـةٌ تَهْوِى خَنُوفاً فى فُضُولِ الزِّمَامْ
تَحْسَبُها مَجْنُونَةً تَغْتَلِى إذا لَفَّعَ الآلُ رُءُوسَ الإكَامْ

وحسبك فى هذا أن تستعيد قوله : « دفقة المشية زيافة » وقوله : « لفّع الآلُ رءوس الإكام » .

وهل ترى فى مطالع القصائد الجاهلية لفظاً أرق ، وعبارة ألطف ، وصورة أطرف ، ونغماً أروع ، مما ترى لحسان فى مطلعه[1] :

لِمَنْ مَنْزِلٌ عافٍ كأَنَّ رُسُومَه خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سَابِرِىٌّ مُرَسَّم
خَلاءُ المَبَادِى مابه غَيْرُ رُكَّدٍ ثَلاثٍ كأَمْثالِ الحَمَائِمِ جُثَّمِ
وغيرُ شَجِيجٍ ماثِلٍ حَالَفَ البِلَى وغيرُ بَقَايا كالسَّحِيقِ المُنَمْنَم

وانظر بعد ذلك إلى توافق اللفظ والمعنى فى تهديده أمية بن خلف الجُمَحى[2] :

أَتانِى عن أُميَّةَ زُورُ قَوْلٍ وما هو بالمَغِيبِ بذى حِفَاظِ
سأَنْشُرُ إنْ بَقِيتُ لكم كَلاَماً يُنَشَّرُ فى المَجَامِعِ من عُكَاظِ
قَوَافِىَ كالسِّلاَمِ إذا استَمَرَّتْ من الصُّمِّ المُعَجْرَفَةِ الغِلاظِ
تَزُورُكَ إنْ شَتَوْتَ بكلِّ أَرضٍ وتَرْضَخُ فى مَحَلِّكَ بالمَقَاظِ

(١) الديوان ١٠ . (٢) الديوان ٥٣ .

وفى توعده معاوية بن أبى سفيان[١] :

أَبلغْ معاويةَ بنَ حَرْبِ مَأْلُكاً ... ولكلِّ أَمرٍ يُسْتَرَادُ قَرَارُ
لا نَقْبَلَنَّ دَنِيَّةً أَعْطَيْتَها ... أَبدًا ولما تَأْلَمِ الأَنْصارُ
حتى تُبَارَ قبيلةٌ بقَبِيلةٍ ... قَوَدًا وتُخْرَبَ بالدِّيارِ دِيَارُ
وتَجِيءَ من نَقَبِ الحِجازِ كَتِيبَةٌ ... ويَسِيلَ بالمُسْتَلْئِمِينَ صِرارُ

وفى هجائه بنى الحماس من بنى الحارث بن كعب رهط النَّجَاشِىّ الشاعر[٢] :

وَلَتُعْرَفَنَّ قَلائدِى بِرِقابِكُمْ ... كالوَشْمِ لا تَبْلَى على الحَدَثانِ[٣]
أَبَنِى الحِمَاسِ فما أَقول لِثَلَّةٍ ... تَرْعَى البِقَاعَ خَبِيثةِ الأَوطانِ
أَين المَآلُ بَنِى الحِمَاسِ إذا ذَكَتْ ... بهِجائِكُمْ مُتَشَمِّعاً نِيرَانِى

وفى تحريضه بنى أبى براء على عامر بن الطُّفَيْل[٤] :

بَنِى أُمِّ البنينَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وأَنتم من ذَوَائبِ أَهلِ نَجْدِ
تَهَكُّمُ عامرٍ بأَبِى بَرَاءٍ ... لِيُخْفِرَهُ ، وما خطأٌ كَعَمْدِ

ثم انظر إلى وضوح قوله فى الحكمة ، وسماحة لفظه ومعناه معاً[٥] :

رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ المَا ... لِ ، وجَهْلٍ غَطَّى عليهِ النَّعِيمُ
ماأُبَالِى أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ ... أَم لَحَانِى بظَهْرِ غيبٍ لَئِيمُ

وقوله[٦] :

أَلم تَعْلَمِى أَنى أَرَى البُخْلَ سُبَّةً ... وأَبغَضُ ذا اللَّوْنَيْنِ والمُتَنَقِّلاَ
إذا انصرفَتْ نَفْسِى عن الشَّىْءِ مَرَّةً ... فلستُ إليه آخِرَ الدَّهْرِ مُقْبِلاَ

فإذا انتهيت إلى غزله وذكريات صباه ، فقل ما شئت فى مثل قوله[٧] :

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأَسْـ ... ـوَدَ ما لم يُعَاصَ كان جُنُونَا

(١) الديوان ١٢٣ .
(٢) الديوان ١٨٨ .
(٣) الديوان ١١١ .
(٤) الديوان ١١١ .
(٥) الديوان ٥ .
(٦) الديوان ٦ .
(٧) الديوان ١١٥ .

ما التَّصَابى على المَشِيبِ وقد قُدَّ بْتُ من ذاكَ أَظْهُرًا وبُطُونَا

وقوله[1] :

لِمَن الدارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانِ بَيْنَ أَعْلَى اليَرْمُوكِ فالخَمَّانِ

. . . . . .

قد دَنَا الفِصْحُ فالوَلَائدُ يَنْظِمْـ ـنَ قُعُودًا أَكِلَّةَ المَرْجانِ

يَجْتَنِين الجَادِيَّ فى نُقَبِ الرَّيْـ ـطِ عليها مَجَاسِدُ الكَتَّان

فى كل ما تقدم من المثل ألوان من الموسيقى ، تختلف ألحانها وتأتلف أنغامها . موسيقى هى سر جمال ذلك الشعر وآية حسنه . ولو أننى حاولت أن أفتش لك عن مأتاها وأكشف كنهها ، لأضعت بذلك وحيها ، وأفسدت سحرها ، فحسبك أن تدرك ذلك الانسجام الموسيقى وتتذوقه وتنعم بآثاره .

بحوره وأوزانه

من أوزان الشعر وبحوره ما تألفه الطباع ، وتستريح إليه الآذان والأذواق ؛ لذلك أحبه الشعراء الأوائل ، وأكثروا من استخدامه ، ونسجوا معظم شعرهم عليه ، وقد أسفر الاستقراء عن أن البحور التى كانت موفورة الحظ من الذيوع والاستعمال فى الشعر العربى هى : الطويل ، والكامل ، والوافر ، والبسيط ، والخفيف ، وتأتى بعدها فى الشيوع أوزان أخرى هى : الرمل ، والمتقارب ، والسريع ، وقد تذبذبت قلة وكثرة على ألسنة الشعراء ، ومن ذلك نرى أن العرب كانوا يميلون إلى البحور الكثيرة المقاطع ويؤثرونها .

والبحر الطويل يمثل الفخامة ، ويصلح للإنشاد فى المجامع والمحافل . وهو لكثرة مقاطعه يناسب جلال مواقف المفاخرة والمناظرة والمهاجاة ، التى تتطلب طول النفس فى الإنشاد ، والتى شغلت الجاهليين وشعراء صدر الإسلام ، فصرفوا إليها معظم جهدهم ، ولذلك أكثروا من استخدام هذا البحر ، وآثروه على غيره ، وجعلوه ميزان

---

(١) الديوان ١٢٥ وانظر كذلك ١٣٨ و ١٣٩ و ١٧٨ .

شعرهم ، حتى استحوذ على نحو ثلث الشعر العربى القديم[١] .

أما بحر الرمل فيمثل العذوبة والرقة والنغم الخفيف المطاوع ، يحلو ترديده والترنم به .

وترى فى البحر الخفيف من السهولة والسلاسة وليونة المقاطع ما يقرب شبهه بالرمل ، ولذلك فضلهما كثير من الشعراء فى شعر الغزل والتصوير العاطفى ، وتغنوا بهما أغانى الصبابة والوجد .

ولو أنك تتبعت هذه البحور بحثاً فى خصائص أوزانها ، وما تتركه فى النفوس من آثارها ، لوجدت لأكثرها خصائص بارزة ، ليس هذا مجال تفصيلها وتقصيها ، ولكن الذى يعنينا من هذا كله هو تبين مدى مسايرة حسان للاتجاه الشعرى العام فى هذا الجانب ، ومقدار انتفاعه بما لبحور الشعر من خصائص ، وتوفيقه فى اختيار البحور المناسبة للأغراض التى قال فيها ، وأثر ذلك فى شعره . وسنرى أن صاحبنا كان يجارى شعراء عصره فيما يأخذون منها وما يدعون ؛ فكانت بحور الطويل والكامل والبسيط والوافر صاحبة الحظ الأوفر من شعره ، يليها المتقارب والخفيف والرمل والسريع . ولم ينظم من المديد والهزج والمضارع والمقتضب والمجتث والمتدارك . وكان أكثر من ثلث شعره فى الجاهلية والإسلام من الطويل[٢] . ولكنك إذا استعرضت شعره الفخرى وحده وجدت قرابة نصفه من هذا البحر ، الذى هو أصلح البحور لهذه المواقف وأشباهها ، ووجدت كثيراً منه من الكامل . مما يدل على تمام إدراكه لخصائص بحور الشعر وأثرها فى النفوس ، وحسن انتفاعه بهذه الخصائص فى البلوغ بشعره إلى الغاية المرجوة منه[٣] .

وقد زادت نسبة استخدامه لبحرى الكامل والوافر فى شعره الإسلامى على حساب غيرهما من الأوزان[٤] . ثم ترقى الأمر من بعده فيما يختص بالكامل . حتى أصبح عند المحدثين البحر المختار . وصاحب الحظوة فيما ينشئون من الأشعار .

---

(١) انظر موسيقى الشعر ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) انظر الجدول رقم ٦ .

(٣) ارجع إلى الديوان الأرقام ٢ و ٣ و ٤ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٣ و ١٦ و ١٧ و ٢٥ و ٧٩ و ١٦٦ وغيرها .

(٤) انظر الجدول رقم ٦ .

ولم يقتصر أمر تخير حسان للبحور الملائمة لأغراضه الشعرية على البحرين الطويل والكامل وحدهما، فإننا نرى كثيراً من شعره فى الغزل والذكريات وتصوير الانفعال العاطفى من بحرى الخفيف والرمل[١]، وهما أصلح البحور للتعبير عن هذه المعانى كما ذكرنا . وهما أيضاً البحران اللذان اتجه إليهما الشعر فى العصور الحديثة، بما فيه من ميل إلى التعبير عن الانفعالات النفسية والعاطفية، وجنوح إلى الرقة والسلاسة، والانتفاع بالنغم ومسايرة الألحان الموسيقية، وقد تميز الرمل بأنه هو البحر الذى نظمت عليه الموشحات فى أغلب الأحيان[٢] .

وهناك أمر جدير بالاعتبار، وهو أن حسان لم يلجأ فى شعره إلى البحور القصيرة، على الرغم من أنه اضطر فى كثير من الأحيان إلى الارتجال، وإنشاء الشعر تحت تأثير الانفعال، والشاعر يلجأ عادة فى مثل هذه الحال إلى الإقلال، وإلى اختيار البحور القصيرة الأوزان، فكان حسان يختار الإقلال، حتى زادت فى شعره الإسلامى نسبة المقطوعات القصار[٣]، ولكنه كان يتجافى عن اختيار البحور القصيرة، رغبة منه فى الانتفاع بمزايا البحور الطويلة، وما تتيحه من طول النفس فى الإنشاد، ومالها من فخامة المظهر وعمق الوقع فى نفوس السامعين .

أثر الحضارة والرحلات فى شعره

ذكرنا أن المدينة كانت بيئة حضارة وترف، وأن حسان قد رحل وخالط الملوك والأمراء فيما وراء الحجاز، وكان من أثر ذلك فى نفسه أن شغفته هذه الحياة حبًّا، وحسبك لتتبين مدى افتتانه بها وعشقه إياها أن تستمع إلى قوله فيها[٤] :

لَعَمْرِى لَحَرْثٌ بينَ قُفٍّ ورَمْلَةٍ ... بِبَرْثٍ علَتْ أنهارُهُ كلَّ مَخْرِمِ

---

(١) ارجع إلى الديوان ٥ و ١٨ و ٤٠ و ١١٥ و ١٢٥ و ١٣٩ و ١٤٨ و ١٥٥ و ١٧٨ .

(٢) انظر موسيقى الشعر ص ٢٢١ .

(٣) انظر الجدول رقم ١ .

(٤) الديوان ١٨ .

لَدَى كلِّ بُنْيَانٍ رفيعٍ ومَجْلِسٍ نَشَاوَى وكأْسٍ أُخْضِلَتْ لم تَصَرَّمِ
أَحَبُّ إلى حسانَ لو يستطيعه مِن المُرْقِصَاتِ مِنْ غِفَارٍ وأَسْلَمِ

كما كان من أثر ذلك فى فنه وشعره أنه لم يكن واضح العناية بوصف مظاهر الحياة فى البادية، كالجدب والسحاب والجواد والناقة والبقر والغزال والحمر الوحشية، لا يوفى معانيها حقها من الإشباع والشمول لقلة مخالطته إياها، إذ كان يحيا حياة حضر واستقرار، يقل معها تأثره بهذه المظاهر، ولذلك كان دون امرئ القيس فى وصف الجواد، ودون أوس بن حَجَر فى وصف الصيد والصائد، ودون الفرزدق فى وصف الجدب على ما تقدم. على حين كان يعد شرب الخمر وارتياد مجالسها الحافلة من آيات الحضارة وسمات السيادة، ويعير البدو جفاء حياتهم، وشربهم ألبان معزاهم، وإقصاءهم عن أبواب الماجدين. كما ترى فى قوله [1]:

مِنْ حِذْمِ غَسَّانَ مُسْتَرْخٍ حَمَائِلُهُمْ لا يُغْبَقُونَ مِن المِعْزَى إذا آبُوا
ولا يُذَادُونَ مُحْمَرًّا عُيُونُهُمُ إذا تُحُضِّرَ عندَ المَاجِدِ البابُ
كانوا إذا حَضَرُوا شِيبَ العُقَارُ لَهُمْ وطِيف فيهمْ بأَكْوَاسٍ وأَكوابِ

وقد حسّن له هذا الشعور وصف الراح وساقيها وندامها ومجالسها والقيان المغنيات عليها، فأحسن.

استمع إليه يزهى بترديد ما كان فى مجلس لهو شهده [2]:

رُبَّ لَهْوٍ شَهِدْتُهُ أُمَّ عَمْرٍو بَيْنَ بِيضٍ نَوَاعمٍ فى الرِّياطِ
مَعْ نَدَامَى بِيضِ الوُجوهِ كِرامٍ نُبِّهُوا بَعْدَ خَفْقَةِ الأَشْرَاطِ
لِكُمَيْتٍ كأَنها دَمُ جَوْفٍ عُتِّقَتْ من سُلافَةِ الأَنْبَاطِ
فاحتواها فَتًى يُهِينُ لها المالَ ، ونادَمْتُ صالِحَ بنَ عِلاطِ
ظَلَّ حَوْلِى قِيانُهُ عازِفَاتٍ بَيْنَ أُدْمٍ كَوَانِسٍ وعَوَاطِ

(١) الديوان ١٣ .
(٢) الديوان ١٨ .

وإلى قوله[١] :

ولقد شربتُ الخمرَ فى حَانُوتِها صَهْبَاءَ صافيةً كَطَعْمِ الفُلْفُلِ
يَسْعَى عَلَىَّ بكَأْسِها مُتَنَطِّفٌ فيُعِلُّنِى منها ولَوْ لَمْ أَنْهَلِ

أو إلى قوله[٢] :

شُجَّتْ بصَهْبَاءَ لها سَوْرَةٌ من بَيْتِ رَأْسٍ عُتِّقَتْ فى الخِتَامْ
عَتَّقَها الحانوتُ دهرًا، فقد مَرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعَامْ
نَشْرَبُها صِرْفاً ومَمْزوجةً ثم نُغَنِّى فى بُيوتِ الرُّخَامْ
كأْساً إذا ما الشيخُ والَى بها خَمْساً تَرَدَّى بردِاءِ الغُلَامْ

فمن ذا الذى يتاح له أن يقول هذا القول إلا من عاش مثله فى بيئة كبيئة المدينة ، ورأى بلاد الشام وما فيها من آيات الحضارة ، وشاهد بيوت الرخام ، وأولئك الغلمان المتنطفين فى قصور الغسانيين ، والقيان العازفات فى بيوت الأمراء والسادة ؟ تلك البيئة هى التى تركت أثرها فى نفسه، وأتاحت له أن يعطينا صوراً شعرية لحياة الاستقرار والخصب والغنى ، محلاة بالتشبيهات الجميلة ، مطبوعة بطابع الحضارة والترف ، فوصف المدينة وخصبها وزروعها ومياهها وخيلها وسوامها وقصورها وحدائقها وآطامها ، ووصف داره ونساءه[٣] :

الدارُ واسعةٌ ، والنخلُ شارِعةٌ والبِيضُ يَرْفُلْنَ فى القَسِّىِّ كالبَرَدِ

ووصف الشباب وجنونه ، والصبا وفتونه[٤] :

إنَّ شَرْخَ الشبابِ والشَّعَرَ الأَسْـ ـوَدَ ما لم يُعَاصَ كان جُنونا
ما التَّصَابِى على المَشِيبِ وقد قُلِّـ ـبْتُ مِنْ ذاك أَظْهُرًا وبُطُونا
وانْتَصَيْنا نَوَاصِىَ اللَّهْوِ يوماً وبَعَثْنَا جُنَاتَنا يَجْتَنُونَا

(١) الديوان ١٣ .
(٢) الديوان ٢٤ .
(٣) الديوان ١٤٠ .
(٤) الديوان ١٢٥ .

فجَنَوْنا جَنًى شَهيًّا حَلِيًّا وقَضَوْا جُوعَهُمْ وما يَأْكُلُونَا

وقد استملى الحياة من حوله المعانى الرائقة. واستلهمها الخيال الجميل، فقال [1]:

قد دَنَا الفِصْحُ ، فالوَلَائِدُ يَنْظِمْـ ـنَ قُعُودًا أَكِلَّةَ المَرْجانَ
يَجْتَنِينَ الجَادِيَّ فى نُقَبِ الرَّيْـ ـطِ ، عليها مَجَاسِدُ الكَتَّانِ
لم يُعَلَّلْنَ بالمَغَافِرِ والصَّمْـ ـغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشَّرْيَانِ

وقال [2]:

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَطْنِ جِلَّقَ ، هَلْ تُؤْنِسُ دونَ البَلْقاءِ مِن أَحَدِ
جِمالَ شَعْثاءَ ، قد هَبَطْنَ من الـ مَحْبِسِ بينَ الكُثْبَانِ فالسَّنَدِ
يَحْمِلْنَ حُوًّا حُورَ المَدَامِعِ فى الرَّ يْطِ ، وبِيضَ الوُجوهِ كالبَرَدِ
مِنْ دونِ بُصْرَى ، وخَلْفَها جَبَلُ الثـ ـلْجِ ، عليه السَّحابُ كالقِدَدِ

وقال يذكر ما هم فيه من رغد وترف [3]:

مُلوكٌ وأَبناءُ المُلوكِ إِذَا انْتَشَوْا أَهَانُوا الصَّبُوحَ والسَّدِيفَ المُسَرْهَدَا
تَرَى فَوْقَ أَثناءِ الزَّرَابِيِّ ساقِطاً نِعالًا وقَسُّوباً ورَيْطاً مُعَضَّدَا
وتَحْسَبُهُمْ مَاتُوا زُمَيْنَ حَلِيمَةٍ وإِنْ تَأْتِهِمْ تَحْمَدْ نِدَامَهُمُ غَدَا
وذو نَطَفٍ يَسْعَى مُلَصِّقَ خَدِّهِ بِدِيباجَةٍ تَكْفَافُها قد تَقَدَّدَا

فمن أين لحسان أن يأتينا بهذه الصور ، ويورد هذه المعانى ، ومن أين له الولائد ينظمن أكاليل المرجان . ويجتنين الزعفران ، ويلبسن مجاسد الكتان . ومن أين له البيض يرفلن فى القسىّ كالبرد . وجبل الثلج ، والزرابىّ والقسّوب . ومن أين له الساقى المتنطف . يسعى ملصّق خده بمناديل الديباج ، مقددة التكفاف . مهدلة الأطراف . من أين له هذا كله إن لم يكن يصف ما حوله ،

---

(١) الديوان ١٢٥ .
(٢) الديوان ١٣٨ .
(٣) الديوان ١٥٨ .

وماعُون بيته وبيوت آله وآل غسان !

هذه هى البيئة التى اقتبس منها تشبيهه أعناق النساء بأعناق الظباء، ورأى فيها الوشى المنمنم فى حواشى برود القطر :

عَسَجْنَ بأَعناقِ الظِّباءِ ، وأَبْرَزَتْ حَوَاشِيَ بُرُودِ القِطْرِ وَشْياً مُنَمْنَمَا

وأخذ منها تشبيهه جانب الجبل المجْدب بأعناق النساء الحواسر ، لا بشىء آخر مما تحفل به البادية .

وأَعْرَضَ ذو دَوْرَانَ تَحْسَبُ أَنهُ من الجَدْبِ أَعْناقُ النساءِ الحَوَاسِرِ

وهى البيئة التى أوحت إليه تشبيه نساء الرسول فى حزنهن بالرواهب فى مسوحهن :

مثل الرَّوَاهِبِ يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وقد أَيْقَنَّ بالبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ البَادِى

وربما كان لهذا اللون من الحياة أثر فى اتجاه حسان إلى تخصيص بعض قصائده بالغزل ؛ فإنها هى الحياة التى حينما اجتمعت أسبابها بعد ذلك فى الحجاز أنبتت أولئك الشعراء الغزلين كما قدمنا[1] . وربما كان لها أثر آخر هو تبصير حسان بمقتضى الحال ، وضرورة موافقة قوله له ، فمكنته من تسديد مدحه الملوك ، فمدحهم بما لا يتجه فى غيرهم من الرؤساء ، ولم يخطئ فى ذلك خطأ الأخطل والبحترى .

ولا تنس أن الرقة التى طبع عليها أهل المدينة ، والتى أتاحت لقلوبهم أن تتفتح للإسلام قبل غيرهم ، كانت عاملا ساعد على تأثر فن حسان بالإسلام والقرآن معنى ولفظاً ، ذلك التأثر الذى خالف به غيره ، والذى سنبينه بعد قليل ، كما تأثر بهما خلقه وروحه . وإلى رقة الحضارة فى حسان ، وجفوة البداوة فى الحطيئة ، يرجع الفرق بينهما فى مدى تأثرهما بالكتاب والإسلام .

وإنك لترى رقة الطبع وسماحة الروح الإسلامية متجلية فى شعره لوفد تميم ، على حين سيطرت على شعر هذا الوفد الروح البدوية والجفوة الجاهلية .

ورقة عاطفته هى التى بعثت حرارة وفائه لعثمان بن عفان عند مقتله ، ولوّنت

---

(١) انظر ص ٢٧٦ من هذا الكتاب .

شعره بذلك اللون من صادق البكاء والغضب والوعيد والتحريض.

ولا شك فى أن حسان بهذا الطبع السمح والذوق المرهف كان أقدر على اختراع المعانى الحضرية ، وابتداع الصور الجميلة ، وانتخاب الألفاظ السمحة ، وتحقيق التآلف الموسيقى والنظم المتسق فى شعره ، على ما بيناه منذ حين .

أثر القرآن فى شعره

لم يضح أثر القرآن فى شعر أحد من معاصرى حسان وضوحه فى شعره معنى ولفظاً وأسلوباً ، فمن أثر القرآن فى معانيه :

١ ــ تشبيهه المتعرض له فيما يصيبه ويصيب قومه من شر شعره بأشقى ثمود ، إذْ أصابهم ما أصابهم بتعرضه لناقة صالح فى قوله[١] :

يكونُ إذا بُثَّ الهِجاءُ لِقَوْمِهِ ولاح شِهَابٌ من سَنَا الحربِ وَاقِدُ
كأَشْقَى ثَمُودٍ إذْ تَعَاطَى لِحَيْنِهِ خَصِيلَةَ أَمِّ السَّقْبِ والسَّقْبُ وَارِدُ

٢ ــ وأخذه معنى قوله[٢] :

فاذهبْ خُبَيْبُ جزاك اللهُ طَيِّبَةً وجَنَّةَ الخُلْدِ عندَ الحُورِ فى الرُّفُقِ

من قوله تعالى :

« وحُورٌ عِينٌ كأَمثالِ اللُّؤْلؤ المَكْنُونِ جَزَاءً بِما كانُوا يَعْمَلُون » .

٣ ــ وأخذه معنى وجود الملائكة على جوانب السماء فى قوله[٣] :

ماذا تَقُولونَ إنْ قال النَّبِىُّ لَكُمْ حِينَ الملائكةُ الأَبْرارُ فى الأُفُقِ

من قوله تعالى :

« والملَكُ عَلى أَرْجائِها ، ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة » .

---

(١) الديوان ٧ .
(٢) الديوان ٩٨ .
(٣) الديوان ٩٨ .
(٤) الديوان ١٣٤ .

٤ ــ أخذه معنى قوله[١] :

مَصدِّقاً للنَّبيِّينَ الأُلَى سَلَفُوا وأَبْذَلَ الناس للمَعْروفِ للجَادِى

من قوله تعالى :

« مُصدِّقا لِمَا بيْن يدَيْهِ مِن الرُّسُل » .

٥ ــ أخذه معنى قوله[٢] :

عِزيزٌ عليه أن يَجُورُوا عن الهُدَى حَريصٌ على أن يسْتَقِيمُوا ويهْتَدُوا

عَطُوفٌ عليهِمْ لا يُثَنِّى جَنَاحَهُ إلى كَنَفٍ يحْنُو عليهِمْ ويَمْهَدُ

من قوله تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسولٌ من أَنْفُسِكُمْ عزِيزٌ عَلَيهِ ما عنِتُّمْ ، حرِيصٌ عليْكُمْ بالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم » .

٦ ــ أخذه معنى قوله[٣] :

رَءُوفٍ على الأَدْنَى غَلِيظٍ على العِدَا أَخِى ثِقَةٍ فى النَّائباتِ نَجِيبِ

من قوله تعالى :

« أَشِدَّاءُ علَى الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُمْ » أو قوله : « أَذِلَّةٍ على المؤْمِنِين أَعِزَّةٍ على الكافرين » .

٧ ــ أخذه معنى قوله[٤] :

لا عَيْبَ بالقَوْمِ مِنْ طُولٍ ولاعِظَمٍ جِسْمُ البِغَالِ وأَحْلامُ العصَافِيرِ

كأَنَّهُمْ خَشَبٌ جُوفٌ مكاسِرُهُ مُثَقَّبٌ فيه أَرْواحُ الأَعَاصِيرِ

من قوله تعالى :

« وإذا رأيتَهم تُعْجِبُك أَجسامُهم ، وإنْ يقولوا تَسمعْ لقولهم كأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدة » .

---

(١) الديوان ١٣٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣١٧/٤ .

(٣) الديوان ١٣٥ .

(٤) الديوان ١٠٣ .

٨ ــ أخذه معنى قوله[١] :

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بِكُفْءٍ فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ

من قوله تعالى :

«وإنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبين » .

٩ ــ أخذه معنى قوله[٢] :

وَرِثْنا مَسَاكِنَهُمُ بَعْدَهُمْ وكُنَّا مُلوكاً بها لم نَرِمْ

من قوله تعالى :

« وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديَارَهُمْ وأَمْوالَهُمْ وأَرْضاً لَمْ تَطئُوهَا » .

١٠ ــ أخذه معنى قوله[٣] :

فأَنْزَلَ رَبِّي للنَّبِيِّ جُنُودَهُ وأَيَّدَهُ بالنَّصْرِ فى كُلِّ مَشْهَدِ

من قوله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدَفِين » ومن قوله : « ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لمْ تَرَوْها » . وقوله : « وَأَيَّدَهُ بجُنُودٍ لمْ تَرَوْهَا وجعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكلمةَ اللهِ هى العليا »

١١ ــ أخذه معنى قوله[٤] :

وقَتْلَاكُمُ فى النارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعاً فِى جَوْفِها وضَرِيعُ

من قوله تعالى : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيع ، لا يُسْمِنُ ولا يُغنى مِن جوعٍ » وقوله : « لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وعذَابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُون ».

١٢ ــ أخذه معنى قوله[٥] :

بِهُبُوبِ مُعصِفَةٍ تُفَرِّقُ جمْعَهُم وجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبابِ

---

(١) الديوان ١ .
(٢) الديوان ٩ .
(٣) الديوان ٤٥ .
(٤) الديوان ١٧٥ .
(٥) الديوان ١٤ .

من قوله تعالى :

« يٰأَيُّها الَّذِين آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ علَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا علَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْها » .

١٣ ــ أخذه معنى قوله[١] :

بِرِجالٍ لَسْتُمُ أَمْثَالَهُمْ أُيِّدُوا جِبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلْ

من قوله تعالى : « إِذْ تقولُ للمؤْمنين أَلَنْ يَكْفِيَكم أَنْ يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنْزَلين . بلى إِنْ تصبِروا وتتقُوا ويأْتوكم من فَوْرِهم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين » .

١٤ ــ ولم يقف حسان عند الأخذ من معانى القرآن . فقد أخذ من حديث الرسول كذلك ، ونظم معنى قوله لأصحاب القليب حين وقف عليهم يحدثهم[٢] . وذلك بقوله[٣] :

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللهِ لَمَّا قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فى القَلِيبِ
أَلَمْ تَجِدُوا حَدِيثِى كان حقًّا وأَمْرُ اللهِ يَأْخُذُ بالقُلُوبِ
فما نَطَقُوا ، ولَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صدقْتَ وكُنْتَ ذا رَأْيٍ مُصِيبِ

أما تأثره ألفاظ القرآن وأسلوبه فتراه فى مثل :

١ ــ اتباعه فى قوله[٤] :

رُدُّوا بِغَيْظِهِمُ على الأَعْقَابِ

قوله تعالى : « وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .

٢ ــ وفى قوله[٥] :

وكَفَى الإِلٰهُ المُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ

---

(١) الديوان ١١ .
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٣ .
(٣) الديوان ١٥ .
(٤) الديوان ١٤ .
(٥) الديوان ١٤ .

قوله تعالى : «وكَفى الله المُؤْمِنِين القِتَال » .

٣ ــ وفى قوله[١] :

مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهم

قوله تعالى : « وهوالذى يُنزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَه »

٤ ــ وفى قوله[٢] :

كأَشْقَى ثَمُودٍ إِذْ تَعَاطَى لِحَيْنِهِ خَصِيلَةَ أُمِّ السَّقْبِ والسَّقْبُ وَارِدُ

قوله تعالى :

« إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاها » وقوله : « فَتَعاطَى فَعَقَر » .

٥ ــ وفى قوله[٣] :

فقال : أَلَا فاسْتَمْتِعُوا فى دِيَارِكُمْ فقد جَاءَكُمْ ذِكْرٌ لَكُمْ ومَوَاعِدُ

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِن الدَّهْرِ لم يَكُنْ لَهُنَّ بتَصْدِيقِ الذى قال رَائِدُ

قوله تعالى :

«فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » .

٦ ــ وفى قوله[٤] :

وأَعْطَوْا بِأَيْدِيهِمْ صَغَارًا وتَابَعُوا فأَوْلَى لكم أَوْلى حُدَاةَ الزَّوامِلِ

قوله تعالى :

« عَنْ يَدٍ وهُمْ صاغِرُون » . وقوله تعالى : « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » .

---

(١) الديوان ١٤ .
(٢) الديوان ٧ .
(٣) الديوان ٧ .
(٤) الديوان ١٧ .

٧ – وفى قوله [١] :

فَدَلاَّهُمُ فى الغَىِّ حتى تَهافَتُوا وكان مُضِلاًّ أَمْرُهُ غيرَ مُرْشِدِ

قوله تعالى :

« فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا »

٨ – وفى قوله [٢] :

دَلاَّ هُمُ بِغُرُورٍ ثم أَسْلَمَهُمْ إنَّ الخَبيثَ لِمن والاهُ غَرارُ

وقال : إنى لكم جارٌ ، فأَوردهم شرَّ المواردِ فيه الخزىُ والعار

أخذ اللفظ والمعنى من قوله تعالى : « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يَخْصِفان عليهما من وَرَقِ الجنة »

ومن قوله تعالى :

« وإذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أعمالَهُمْ ، وقال لَا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ الناسِ وإنِّى جَارٌ لَكُمْ ، فلمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ على عقِبيْهِ » .

٩ – وفى قوله [٣] :

نَبِىٌّ أَتانا بَعْدَ يَأْسٍ وفَتْرَةٍ من الرُّسْلِ والأَوْثانُ فى الأَرض تُعْبَدُ

قوله تعالى : « يا أَهْلَ الكِتَابِ قدْ جَاءَكمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكُمْ على فَتْرَةٍ مِن الرُّسُلِ » .

١٠ – وفى قوله [٤] :

« فإيّاكَ نَسْتَهْدِى وإيّاكَ نَعْبُدُ »

قوله تعالى : « إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِين » .

١١ – وفى قوله [٥] :

وَطَوَّفْتُ بالبَيْتِ العَتيقِ ، وسَامَحَتْ طَرِيقَ كَدَاءٍ فى لُحُوبٍ سَوَائِرِ

---

(١) الديوان ٤٥ .
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣١٩ .
(٣) الديوان ١٥٤ .
(٤) الديوان ١٥٤ .
(٥) الديوان ١٥٦ .

قوله تعالى : «وَاطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ» .

١٢ — وفى قوله[1] :

فنَشْهَدُ أَنكَ عَبْدُ المَلِيـ ـكِ أُرْسِلْتَ نوراً بدِينٍ قِيَمْ

قوله تعالى : «دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفاً»

١٣ — وفى قوله :

وَتَبَّ ابْنا رَبيعَةَ إذْ أَطَاعَا أَبا جَهْلٍ ، لِأُمِّهما الهُبُولُ

قوله تعالى : «تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ» .

وفيما تقدم أوضح الدلالة على اتجاه حسان إلى الاقتباس من القرآن ، والأخذ من معانيه ، وترسّم أساليبه ومناهجه ، فإذا رأيت أن هذه المحاولة لم تنجح نجاحاً ملحوظاً فاذكر أنه ليس من الهين الميسور على امرئ أن يتخلى وقد شاخ وكبر عن طبائع تأصلت ، ومواهب قد نمت وترعرعت ، ويتجاوز ملكات نضجت واستوت إلى أخرى حديثة العهد قريبة الميلاد، فى فترة قصيرة لا تجاوز بضع سنين من عمر الزمان . وحسْب حسان أنه حاول ، وأنه مضى فى محاولته شوطاً بعيداً ، وأنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه واحد من معاصريه .

خصائصه

كان الشعراء يبدءون قصائدهم عادة بالنسيب ، ثم ينتقلون منه إلى وصف السفر وشد الرحال ، وما يتصل بذلك من الإبل والخيل والصحراء وغيرها ؛ ثم يصلون من هذا فى الكثير الغالب إلى المدح ، ولكن حسان خالف هذا المنهج ، لأنه لم يكن يصطنع المدح ولا يحترفه ، ولأنه كان مشبوب الروح بالفخر ، جياش الطبيعة بالزهو ، فاصطفى الفخر خليلا ، واتخذه من المدح بديلا ، وراح يضمه فى قصائده إلى النسيب والوصف .

ونرى للشعراء عبارات ابتدعوها ، وتعبيرات خاصة استحدثوها ، فأصبحت من صيغ الشعر الخالصة ، كمخاطبة الرفيقين التى لا يكاد يخلو منها شعر شاعر

---

(١) الديوان ٩ .

جاهلى أو لاحق للجاهلية ، ولكن حسان لم ينسج على منوالهم فيها ، فلا تجد لها أثراً فى شعره، على كثرة خطابه الواحد فيه ، وبدلا من أن يخاطب رفيقيه أو خليليه نراه يخاطب واحداً، فيقول :

انْظُرْ خَلِيلِي ببَطْنِ جِلَّقَ هل تُؤْنِسُ دُونَ البَلْقاءِ من أَحَدِ

ويقول

سَائِلْ أَبا كَرِبٍ وسائِلْ تُبَّعًا عَنا وأَهْلَ العِتْر والأَزْلاَم

ويقول :

أَشَاقَكَ مِن أمِّ الوَليدِ رُبُوعُ بَلاقِعُ ، ما مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيعُ

ويقول :

هل تَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمَها بَعْدَكَ ثَوْبُ المُسبِلِ الهاطل

ويقول :

يا رَاكِباً إِمَّاعَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ عَبْدَ المَدَانِ وجُلَّ آلِ قَنَان

ويقول :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِى الدَّيَّانِ عَنِّى مُغَلْغَلَةً وَرَهْطَ بَنِى قَنَانِ

ويقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّاللُّؤْمَ والغَدْرَ والخَنَا بَنَى مَسْكَناً بَيْنَ المَعِينِ إلى عَرْدِ

إلى غير هذا من الأمثلة .

ولعل إهماله هذا لما درج عليه الجاهليون ومن تبعهم راجع إلى بيئته الحضرية، وحياة الاستقرار التى أغنته عما ألف البدو من الانتجاع وكثرة الارتحال ، الذى كان من ضروراته ولوازمه الصحاب والرفاق ، فألفوا بذلك مخاطبة الرفيقين ، اللذين قد يكون أحدهما عن يمين المتكلم والآخر عن شمال .

ومن الظواهر فى شعر حسان ميله إلى البحور الطويلة الكثيرة التفاعيل . وعزوفه عن البحور المجزوءة والقصيرة الأوزان ، وكثرة ترديده لعبارة « أبيك الخير » وعبارة « دع كذا ، ودع ذكر كذا » وأشباهها فى الانتقال من الغزل إلى غرضه ، وجعله

التيوس مثلا فى الحساسة ، وقد أكثر من الإشارة إلى ذلك فى شعره[١]. وبراعته فى خلق الصور الفنية وابتكارها فى الهجاء . وإلحاحه فى إبراز هذه الصور الهجائية بعرضها من زوايا مختلفة ، وارتياحه إلى الإفحاش والإكثار منه . وعدم إشباعه المعنى وتوفيته حقه فى الوصف ، كما ترى فى وصفه الجدب[٢] :

إذا اغْبَرَّ آفاقُ السَّماءِ وأَمْحَلَتْ ... كأَنَّ عليها ثَوْبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا

حَسِبْتَ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيُوتِنا ... قَنَابِلَ دَهْماً فى المَحَلَّةِ صُيَّمَا

وقوله[٣] :

وإنّا إذا ما الأُفْقُ أَمْسَى كأَنما ... على حَافَتَيْهِ مُمْسِياً لَوْنُ عَنْدَمِ

لَنُطْعِمُ فى المَشْتَى ونَطْعَنُ بالقَنَا ... إذاالحَرْبُ عادَتْ كالحَرِيقِ المُضَرَّمِ

مآخذ على شعره

لم يسلم شعر حسان من مآخذ ، بعضها هنوات تعرض لمثلها فحول الشعراء ، وبعضها من العيوب التى تشوب جمال الشعر ، والتى يتمنى المرء لو برئ منها ذلك الأثر الفنى الخالد ، ليتم حسنه ، وتسلم له مكانته ، فقد كان حسان قليل الاحتفاء بمحط الجرس فى عروض البيت ، وكثيراً ما كان يجعله ألفاً رخوة ، أو يصله بالشطر الثانى ، فيضعف ذلك من قوته ، وتختفى به حلاوة نغمته ، والمثل على ذلك كثيرة فى شعره . وقد كسب شعر الفرزدق قوة مقطع ، وجمال وقع ، لأنه كان من مشاهير الفحول الذين عنوا بمحط الجرس فى عروض البيت . وقد لجأ حسان إلى التضمين[٤] فى رثاء جعفر بن أبى طالب ، وهو غير محمود فى الشعر ، وقد يكون من بعض عذره أن التضمين فى هذه المناسبة كان حميد الأثر فى الشعر ، إذ ساعده على إطالة الأنّة التى تتردد فى صدر من يندب خطبه الفادح ، وأعانه على التعبير

---

(١) انظر القصائد ٥ و ٢٦ و ٥٠ و ٦٤ و ٦٦ و ٧١ و ١٨٩ و ١٩٦ و ٢١١ .

(٢) الديوان رقم ٤ .

(٣) الديوان رقم ١٠ .

(٤) التضمين أن تكون فى بيت من قصيدة كلمة ترتبط ارتباطاً نحويا بكلمة أخرى فى بيت سابق أو لاحق .

عن الحزن الممض بذلك التنغيم والترجيع الموسيقى . وذلك بقوله [١] :

ولقد جَزِعْتُ وقلتُ حينَ نُعِيتَ لى ... مَنْ للجلادِ لَدَى العُقابِ وظِلِّها
بالبيضِ حينَ تُسَلُّ مِن أَغْمادِها ... يَوْماً وإنْهالِ الرِّماحِ وعَلِّها
بَعْدَ ابنِ فاطمةَ المُبَارَكِ جعفرٍ ... خيرِ البَرِيَّةِ كلِّها وأَجَلِّها
رُزْءًا . وأَكْرَمِها جميعاً مَحْتِدًا ... وأَعزِّهـــا مُتَظَلِّماً وأَذَلِّها
لِلْحَقِّ حينَ يَنُوبُ غيرَ تَنَحُّلٍ ... كَذِباً ، وأَغْمَرِها نَدًى وأَقَلِّها
فُحْشاً . وأكثرِها إذا ما تُجْتَدَى ... فَضْلاً . وأَبْذَلِها نَدًى وأَدَلِّها

ومن عيوب شعره ما تراه فى بعضه من الإقواء [٢] . كقوله [٣] :

يا آلَ بَكْرٍ أَلاَ تَنْهَوْنَ جاهِلَكُمْ ... عَبْدَ ابنِ رَحْضَةَ عَنْزًا بينَ أَتْيَاسِ
يابنَ التى سَلَحَتْ فى بيت جارتها ... فطار منه عِصَارٌ يَقْشِبُ الناس[٤]

وقوله [٥] :

مُزَيْنَةُ لا يُرَى فيها خَطِيبٌ ... ولا فَلْجٌ يُطَافُ به خَصيبُ
رجالٌ تهلِك الحسنات فيهمْ ... يَرَوْن النَّيْسَ كالفَرِسِ النجيبِ

وقوله [٥] :

إنّى حَلَفْتُ يَمينًا غيرَ كاذبة ... لو كان للحارثِ الجَفْنِىِّ أَصحابُ
كانُوا إذا حَضَرُوا شِيبَ العُقَارُ لَهُم ... وَطِيفَ فيهم بأَكْوَاسٍ وأَكْوَابِ

ومن عيوبه التوجيه [٧] . كما فى قوله [٨] :

---

(١) الديوان رقم ١٦٠ .
(٢) الإقواء مخالفة حركة الروى فى بعض الأبيات لما بنيت عليه القصيدة وتجده بالديوان بالأرقام ٣٥ و ٦٤ و ٧٠ و ٧١ و ٨٩ و ٩٢ و ١٦٨ .
(٣) الديوان رقم ٦٤ .
(٤) العصار : الغبار الشديد . يقشب الناس : يلطخهم .
(٥) الديوان رقم ٧١ .
(٦) الديوان ٩٢ .
(٧) التوجيه : هو اختلاف ما قبل الردف فى القافية .
(٨) الديوان ٧٥ .

صلَّى الإلهُ على الذين تَتَابَعُوا يَوْم الرَّجِيعِ فأُكْرِمُوا وأُثِيبُوا
رَأْسُ الكتيبةِ مَرْثَدٌ وأَميرُهُم وابنُ البُكَيْرِ إمامُهُمْ وخُبَيْبُ

ومنها وصله همزة القطع كقوله[1] :

وأَنتَ ابنُ المُغيرةِ عَبْدُ شَوْلٍ قد انْدَبَ حَبْلَ عاتِقِكِ الوِطابُ

وقوله[2]:

إنَّ الفَرَافِصَةَ بنَ الاحْوَصِ عندهُ شَجَنٌ لأمِّكَ من بَنَاتِ عُقَابِ

وقوله[3] :

جَعلْتُم فَخْرَكُمْ فيه لِعَبْـدٍ مِن الأَمِ مَنْ يَطَا عَفَرَ التُّرابِ

وقوله[4] :

ذَلَّتْ رِقابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلِّهِمُ وكان أَمرًا مِن امْرِ اللهِ قد قُدِرَا

وقوله[5] :

رَكَنَّا إليه ولم نَعْصِهِ غَدَاةَ أَتانا مِن ارْضِ الحَرَمْ

وقطع همزة الوصل . كما فى قوله[6]:

ساعةً ثم قال هُنَّ بَدَادِ بَيْنَكُمْ غَيْرَ سُمْعَةِ الإخْتِلاَطِ
فَتَنَادَوْا فأَلْجَمُوهُ وقالوا لِغُلامٍ مُعَاوِدِ الإعْتِبَاطِ
ثم رُحْنا وما يَخَافُ خَلِيلِي من لِسانِي خِيانةَ الإنبِساطِ

ومن عيوبه أيضاً تسهيل الهمزة . كما فى قوله[7] :

مَشُومٌ لَعِينٌ كان قِدْماً مُبَغَّضاً تَبَيَّنَ فيه اللؤمَ من كانَ يَهْتَدِى

---

(١) الديوان ١٧٩ .
(٢) الديوان ١٨٠ .
(٣) الديوان ٢٠٠ .
(٤) الديوان شرح البرقوق ص ١٦٤ .
(٥) الديوان ٩ .
(٦) الديوان ١٨ .
(٧) الديوان ٤٥ .

وقوله[١] :

كَفَرتم بالقُرَانِ وقد أُتِيتُمْ بِتَصْديقِ الذى قال النذير

وقوله[٢] :

جَعَلْتُم فَخْرَكم فيه لِعَبْدٍ مِن الْأَمِ مَنْ يَطَا عَفَرَ التُّرابِ

ومنها عدم إشباع الضمير ، كما فى قوله[٣] :

مَنْ مُبْلِغٌ صَفْوَانَ أَنَّ عَجُوزَهُ أَمَةٌ لِجارِهِ مَعْمَرِ بنِ حَبِيبِ

وقوله[٤] :

أَبْلِغْ ربِيعةَ وابنَ أُمِّهِ نَوْفَلاً أَنِّى مُصِيبُ العَظْمِ إِنْ لم أَصْفَحِ

هذه المآخذ ترجع كلها إلى قواعد الشعر وموسيقاه . وهناك مآخذ أخرى على لغة الشعر نفسها ، على الرغم مما قدمناه من تخيره الألفاظ ، وإقلاله من الإغراب والتعقيد . فقد جاءت له ألفاظ وعرة غير منتقاة يعوزها الجمال . وهناك قصائد ترى فيها تلك المآخذ[٥] من ألفاظ غريبة عسرة كقوله : « تضطعف ، والوكف والظلف ، وتلف »[٦] . أوعبارات ركيكة كقوله : « أجل أيضاً ومين ، وهذا حينْ أنطق أو أبين »[٧] . « تنزيل نص مليكنا الوهاب »[٨] . وأخرى ضعيفة كقوله : « بعدما قد تحلها فى نشاط[٩] » و « منبر الهادى الذى كان يصعد » و « عَلَّوْه الثرى لا يوسد » و « واراه فى التراب ملحد »[١٠] و « شهدت وفاته فى يوم الاثنين » . و « أُسقيتُ سُمَّ الأسوَد »[١١] . و « ولم يُعِش بعده أنثى ولا ذكراً[١٢] » . أو نابية كقوله

---

(١) الديوان ٩٦ .
(٢) الديوان ٢٠٠ .
(٣) الديوان ٥٣ .
(٤) الديوان ١٨٧ .
(٥) منها القصائد ١٨ و ١١٧ و ٢١٦ .
(٦) الديوان ٢١٦ .
(٧) الديوان ١١٧ .
(٨) الديوان ١٤ .
(٩) الديوان ١٨ .
(١٠) ابن هشام : السيرة ٣١٧/٤ .
(١١) الديوان ١٣٣ .
(١٢) ابن هشام ٣٢١/٤ .

عن النبي : « وألقوْا فوْقهُ المدَرَا »[١] وقوله له : « ولا تَحتشِم »[٢] وقوله عن الله تعالى : « وجنود ربك سيد الأرباب »[٣] وخطابه إياه بقوله : « يا ذا الجلال وذا العلا والسودَدَ »[٤]. أو مكررة تكرير « مليك » فى قصيدته[٥] :

أولئكَ قَوْمِى فإنْ تَسْأَلِى كِرامٌ إذا الضَّيْفُ يَوْماً أَلَمّ

أو تكرير « عبد وعبيد وأعبد » ثمانى مرات فى قصيدته[٦] :

ما بالُ عَيْنِى دُمُوعُها تَكِفُ مِنْ ذِكْرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قَذَفُ

أو غامضة معقدة كقوله منها :

دَعْ ذا وَعَدِّ القَرِيضَ فى نَفَرٍ يَدْعُونَ مَجْدِى ومِدْحَتِى شَرَفُ
إنَّ سُمَيْرًا عبدٌ طَغَى سَفَهاً أَجْدادُهُ أَعْبُدٌ لنا تلِفُ
بالكَاهِنَيْن الَّذِينَ جَدهُمُ عَبْدُ العَصَا واللئامُ إنْ أَسِفُوا

وقوله[٧] :

ومَنْ جَدَّهُ الأَدْنَى أَبِى وابنُ أُمِّهِ لِأُمِّ أَبِى ذاكَ الشَّهيدُالْمُجَاهِدُ

وقوله[٨] :

مُلُوكاً على الناسِ لم يُمْلَكُوا مِن الدَّهْر يَوْماً كَحِلِّ القَسَمْ

وقوله[٩] :

مِثْل الرَّوَاهِبِ عَطَّلْنَ البُيوتَ وقد أَيْقَنَّ بالبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ البَادِى

---

(١) ابن هشام ٤/٣٢١ .
(٢) الديوان ٩ .
(٣) الديوان ١٤ .
(٤) الديوان ١٣٣ .
(٥) الديوان ٩ .
(٦) الديوان ٢١٦ .
(٧) الديوان ٧ .
(٨) الديوان ٩ .
(٩) الديوان ١٣٤ .

وبعض هذه العيوب أوقعه فيه سوء اختياره القافية ، لأنه كان يختار أحياناً قافية خاصة ليدخل فيها لفظاً معيناً فتسيء إليه ، فقد بنى قصيدته فى صالح بن علاط على الطاء ليذكره بها . فأوقعته فى ألفاظ ثقيلة منكرة ، وعبارات مستكرهة ، كقوله : « سمعة الإختلاط ، ومتن المقاط . وفوزة الآباط ، وبعلج يكفه بعلاط ، وخيانة الإنبساط » ، كما بنى قصيدة الخندق على الباء ليدخل فيها كلمة « الأحزاب » . وهذه القوافى هى التى أوقعته فى مثل قوله : « حسب سمين » و « أوكان ما تلوين فى وكر » و « لابد مما يجلب الجالب » التى تحدثنا عنها فى مواضع سابقة .

وبعد . فكيف يقع مثل هذا الشاعر العظيم فى هذه المآخذ التى نجدها بشعره الجاهلى والإسلامى على السواء ، وقد كانت له منادح عن الوقوع فيها فلم يفعل ، وكيف يتفق ماله من شعر جيد كثير ، هو مثل الجزالة والفخامة والقوة والروعة ، مع ما عددنا له من هفوات ومعايب ؟

لا شك فى أن بعض هذه المآخذ راجع إلى أن حسان كان يرتجل الشعر ارتجالا فى مواطن كثيرة ، وقد كان بعض هذا الشعر المرتجل قوياً جميلا ، كقصيدتيه فى وفد تميم [١] . وقصيدته فى هجاء هند بنت عتبة [٢] . ولكن بعضه الآخر كان الارتجال يعجله عن الروية فيه وتنقيحه وتقليب النظر بين أبياته ، فتسربت إليه تلك الهنوات والمآخذ ، ومع ما بذل فى تحرير الديوان من جهد ، فقد لا يبعد أن يكون قد تسرب إليه يسير ليس من شعره ، فحمل معه بعض هذه العيوب .

وقد أكون ظالماً لحسان حين حملتنى الأمانة العلمية على أن أتتبع شعره بيتاً بيتاً ، وأفحصه كلمة كلمة . فوقعت له على ما ذكرت . ولست أرانى مبالغاً إذا قلت إننا لو نهجنا هذا النهج فى درس آثار غيره من الفحول ، وتتبعناها هذا التتبع ، وأصررنا هذا الإصرار على بحثها وتمحيصها ، فلربما وقعنا لبعضهم على مثل ما رأينا لحسان أو قريب منه ، ولوجدنا لهم من مثل هذه المآخذ ما قد يملأ الصحائف .

---

(١) الديوان ٢٣ ، ٢٥ .

(٢) الديوان ٢١٤ .

منزلته

والآن وقد فرغنا من الكلام عن فن حسان ، وبينا ما له وما عليه ، يجدر بنا أن نشير إلى رأى معاصريه ومن جاء بعدهم من الشعراء والنقاد وأئمة اللغة فيه ، لننتهى من ذلك إلى كلمة سواء ، نقدره بها قدره ، وننزله بين الشعراء منزله .

١ و ٢ — فقد أدرك حسان النابغة الذبيانى والأعشى ، وأنشد هما شعره ، وقال له كلاهما « إنك لشاعر »[١] .

٣ — وقال الحطيئة : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لا يَسْأَلونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ[١]

٤ — ويرى فيه مزرِّد أخو الشماخ مثلا للشاعر ، ويستكثر على كعب ابن زهير أن يدعى لنفسه وللحطيئة سبقاً فى ميدان القوافى ، فأين هو من حسان بن ثابت ! وذلك إذ يقول له[٣] :

فلستَ كَحَسَّانَ الحُسَامِ بن ثابت ولَسْتَ كشَمَّاخٍ ولا كالمُخَبَّل
فبُؤْسَكَ أَنْ خَلَّفْتَنى خَلْفَ شاعرٍ مِن الناسِ لا أُكْفِى ولا أَتَنَحَّل

٥ — وقال أبو عمرو بن العلاء : « أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت[٤] » .

٦ — وقال أبو عبيدة : « أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر » . وقال : « فَضَل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى أيام النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام »[٥] .

٧ — وقال محمد بن سلام الجمحى : « المدينة أشعر القرى العربية ، وشعراؤها الفحول خمسة ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس

---

(١) الموشح ص ٦٠ ، الاستيعاب ١٣٠ ، بلوغ الأرب ١/٢٥ .
(٢) الاستيعاب ١٣٠ ، تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٦١ ، الأغانى ٢/١٦٦ .
(٤) تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ ، الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٥) الاستيعاب ص ١٢٩ — أسد الغابة ص ٥ ، الإصابة ٢/٨ .

ابن الخطيم . وأبو قيس بن الأسلت . وأشعرهم حسان بن ثابت . وهو كثير الشعر جيده »[١] .

٨ — وقال أبو الفرج الأصبهانى : « حسان فحل من فحول الشعراء » وذكر أن « شعره كان من مفاخر الأنصار على الشعراء »[٢] .

٩ — والأوربيون يفضلون شعره على غيره من شعراء البادية . ويرون أن قيمته الكبرى ترجع إلى أنه مصدر من مصادر التاريخ الإسلامى[٣] .

١٠ — وجاء فى الوسيط : « هو شاعر اليمنية فى الإسلام . لم يكن فى أصحاب الرسول ولا أعدائه عند الدعوة أشعر منه » ويقول : « هو أشعر أهل المدر . وفحل شعراء المخضرمين . أدرك فحول الجاهلية فلم يقصر عن اللحاق بهم . وبذّ الكثير منهم »[٤] .

١١ — ويقول الأصمعى : « شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر » .

ويقول : « حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء » فقال له أبو حاتم : « تأتى له أشعار لينةٌ » فقال الأصمعى : « تنسب إليه أشعار لا تصح عنه » .

ثم يقول : « الشعر نكد بابه الشر (وفى رواية : الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل . فإذا دخل فى الخير ضعف ولان) — هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية . فلما جاء الإسلام سقط شعره » .

ويقول : « اشعرْ إذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام . فلما دخل شعره فى باب الخير ، من مراثى النبى وحمزة وجعفر وغيرهم لان شعره . وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول ، مثل امرئ القيس و زهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته فى باب الخير لان[٥] » .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٨٤ .

(٢) الأغانى ٤/٣ ، ٩/٣٢٧ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

(٤) ص ١٥٨

(٥) الموشح ص ٦٢ ، الشعر والشعراء ص ١٠٤ ، الاستيعاب ص ١٣٠ ، أسد الغابة ص ٥ .

مناقشة رأى الأصمعى

فهؤلاء الشعراء والأئمة قد أجمعوا على أن حسان فحل من فحول الشعراء . وأنه أشعر أهل المدر على السواء ، وقد وافقهم الأصمعى على هذا فى جانب ، ثم خالفهم فى جانب . إذ وصف حسان بأنه أحد فحول الشعراء ، وأن شعره فى الجاهلية من أجود الشعر ، وأن ما يقال عن ليونة شعره راجع إلى ما يعزى إليه من أشعار لم تثبت نسبتها إليه . ثم عاد فقرر سقوط شعره الإسلامى . وعلله بأن الشعر بابه الشر وطريقه شعر الفحول . فإذا دخل فى باب الخير لان . ومثّل لباب الخير منه بما كان من مراثى النبى وحمزة وجعفر وغيرهم .

ويجب قبل أن نناقش رأيه هذا أن نحدد المعنى الذى يريده من ليونة الشعر ، فإذا كان غرضه من الليونة السهولة والدماثة والتخلى عن بعض ما فى الشعر الجاهلى من غرابة فى اللفظ أو وعورة فى الأسلوب فليس ذلك بعاب . بل إنه لدليل على تأثر حسان ببيئته من ناحية ، ثم تأثره بأسلوب القرآن الكريم السهل الناصع المشرق الموزن من ناحية أخرى . وهى ظاهرة طبيعية لا يضارّبها حسان . وإنما العيب أن ينشأ حسان فى المدينة ، ويعاشر آل جفنة ، ثم يسلم ويقرأ القرآن ويصاحب الرسول . وتخالط بشاشة الإسلام قلبه ، ثم لا يلين جانبه ، وترق حاشيته ، وتسلس ملكاته الفنية ، ويتأثر بتعاليم الإسلام وروحه الجديدة .

وليس يضير حسان فى هذا الوجه ألا يرضى عنه رجل مولع بالغريب ، معيار البلاغة عنده ومقياس قوة القول لديه ما يزخر به من الألفاظ البدوية الغريبة ، والأساليب الجاهلية الخشنة . والعبارات الجوفاء الضخمة .

بل إن من حق حسان أن يزهى بأخذه من القرآن ، وانتفاعه بأسلوبه ، ومسايرته لمنهجه وروحه ، فى وقت كان الشعراء فيه أحد اثنين . تارك للقول مُصْفٍ كلبيد . أو باق على جاهليته وبداوته وعنجهيته كالحطيئة . أما حسان فقد ظل نبع الشعر الدافق ، كما كان لسان الإسلام الناطق .

وإذا كان غرضه من الليونة الضعف والهبوط وانحطاط المستوى الفنى للقول فكلامه غير مستقيم ، ينقض آخره أوله ، لأنه يرد هبوط شعر حسان إلى دخوله

فى الخير من مراثى النبي وحمزة وجعفر وغيرهم . كما يرد قوة الشعر إلى انتهاج سبيل الفحول من وصف الديار والخمر والخيل والحرب والهجاء والمديح والنسيب والافتخار ، وكأن شعر حسان قد خلا من هذا جميعاً وانقلب كله رثاء ، مع أن أكثر شعره بعد إسلامه كان فى هذه الوجوه . وأقله كان فى الرثاء فكيف يستقيم مع هذا القول بأن شعره جملة قد ضعف ولان؛ لأنه تحول إلى باب الخير من الرثاء، وليس له منه — كما ترى — إلا القليل !!

وإذا وافقنا الأصمعى على أن انصراف الشاعر عن سبيل الفحول الجاهليين مؤد بشعره إلى الضعف والهبوط لزم من ذلك أن كل شاعر التزم فى شعره الحدود الإسلامية ، فى ذلك الزمن أو بعده ، انتهى شعره إلى السقوط ، وهو ما لم يقل به أحد ، وما ينقضه الواقع .

هذا فضلا عن أن نقد الأصمعى قد يكون منصبًّا على شعر ليس الآن من شعر الديوان، ولا يدخل فى نطاق الدرس ، لأنه قال ما قال فى وقت كان شعر حسان ما يزال روايات فى أفواه الرواة ، لم يوضع بعد موضع التدو ين ، ولم يعرض له محمد بن حبيب بالنظر والتمحيص والتحقيق والتوثيق [1].

وأعود بعد هذا إلى رأى الأصمعى ، فأقرر مخالفتى إياه فيما ذهب إليه جملة وتفصيلا ، فدعواه ذات شعبتين : الأولى أن الشعر نكد بابه الشر وطريقه طريق شعر الفحول . . . فإذا دخل فى باب الخير لان ، والأخرى أن شعر حسان فى الإسلام سقط وضعف ولان لأنه دخل فى باب الخير [2] .

ونحن نرد عليه قوله الأول ، فمن ذا الذى قال إن الشعر نكد ، وإنه يقوى فى الشر ، وإن دخوله فى باب الخير يؤدى به حتما إلى الليونة والضعف ، أو يدعى أن كلمة عابرة كهذه يرسلها الأصمعى ، فيخرج بها على نفسه وعلى إجماع أئمة اللغة وأهل الأدب تصير بين الناس قولا لا يرد وحكماً لا يدفع ؟ فإنما مرد قوة الشعر وضعفه إلى طبيعة الشاعر ، وأصالة مواهبه أو سطحيتها ، وإلى صدق عاطفته أو كذبها ، وقوة انفعاله النفسى أو ضعفه ، وكما تنفعل النفوس بعوامل الشر تنفعل

---

(١) انظر الجدول رقم ٤ .

(٢) توفى الأصمعى سنة ٢١٦ أو ٢١٤ ، وتوفى ابن حبيب سنة ٢٤٥ هـ . وقد رجحنا أن جمع ديوان حسان وتدوينه كان فى صدر القرن الثالث للهجرة .

بدوافع الخير ، وقد يصل انفعالها بأسباب الخير أقصى درجاته ، فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذرواته ، وقد يكون انفعال الشاعر بحب الرسول صلى الله عليه وسلم أشد وأقوى من انفعال شاعر بحب غادته اللعوب ، وفتاته الصَّيود ، فيقول الأول فى مدحه . ووصف ما يعانيه من لواعج حبه ما لا يستطيع أن يقوله الآخر فى محاسن محبوبته . وما يحسه من لوعة العشق وحرقته ، وقد يقول شاعر فى حب الذات القدسية ووصف الراح الإلهية ما لا يقوله آخر فى الكواعب الحسان . أو فى بنت الدنان وخمر بيسان . ولنعتبر فى ذلك بحجازيات الشريف الرضى ، فهى خير شعره ، وبشعر المسلمين فى الحث على الجهاد والترغيب فى الاستشهاد ، وبشعر التواجد الصوفى ، بل انظر فى شعر البوصيرى تجد شعره فى باب الشر من الرذل السفساف ، فإذا مدح الرسول جاء بما أعجز السابقين واللاحقين ، وما يعد درة فى جبين الأيام ، ومثلا أعلى لما يكون عليه الإحسان فى الكلام ، يبلى الزمان فتأبى على البلى جِدَّته ، وتزيده ترديداً وتكراراً فتزداد على اللسان حلاوته ، وتتضاعف فى الأسماع طلاوته . وروائع شوقى فى الرسول ، وبكاء مجد العروبة وحضارة الإسلام فى الأندلس والشام ، وما صاغه فى الحكم والأخلاق من عيون شعره وخوالده . ولأبى تمام وابن الرومى وأبى الحسن التهامى فى الرثاء ما لا نظير له فى حلبة الشعر .

فهذه هى أبواب الخير ، لم يفقد بها الشعر قوته ، بل أضفت عليه جماله العبقرى وجزالته . وردت إليه بهاءه وفخامته .

وأما قوله الآخر بأن شعر حسان فى الإسلام سقط وضعف ولان لدخوله فى باب الخير من الرثاء . ففضلا عما ذكرنا من أن أقل شعره كان فى الرثاء ، فإننا نرده أيضاً بأن شعره فى الفخر على كثرته كان مثلا يحتذى فى قوته . فقد كان حسان — جاهلية وإسلاماً — قبل كل شىء الشاعر الفخور . جعل الفخر زاده وعتاده . وكأنه لم يقل الشعر إلا ليرسى للفخر أوتاده . ويرفع إلى السماكين عماده . فكان فخره فيهما مجلجلا مدويًّا . وكان مثلا سائراً وضوءاً سارياً . كما كان جيد الشعر فى غزله وفى وصفه . وفى مدحه ورثائه كثير من منتخب القول ، ولكن شعره فيهما جملة دون مستوى شعره ، لا لأنه داخل فى باب الخير ، فقد بينا الآن أن دخول الشعر فى هذا الباب لا يؤدى به إلى ضعف ، بل قد يؤدى به إلى القوة والنصاعة ولكن

ذلك لأنه لم يكن فى جاهليته مادحاً ولا راثياً كما قدمنا[١] . فلما أسلم خاض بالقول فيهما بحراً لم يألف عبابه ، وحاول فنّاً لم يطرق أبوابه . كما كان يرى فى تأييده العملى للرسول . ومنافحته الدائمة المتصلة عنه وعن الدين ، واستغناء الرسول وصحبه بفعالهم ومناقبهم ومقامهم المشهود عن كل تمجيد ، مع ضيق وقته بالانصراف الكامل إلى مهاجاة المشركين ومناهضتهم — كان يرى فى ذلك كله ما يغنى عن التأنق فى المدح والتأنى فى الرثاء .

أما هجاؤه فمن أجود الهجاء وأقواه ، وأنفعه للمسلمين . وأنقعه سماً للمشركين ، وما شابه ضعف فى روحه ومنهجه وبنائه ومعانيه ، وما شابه إلا بعض المآخذ التى سبقت إليها الإشارة . والتى لا ترجع إلا إلى الإكثار والارتجال . وسنعود إلى هذه المسألة بعد قليل .

فالحكم على شعر حسان الإسلامى بالليونة والضعف حكم جائر فطير . وعلى من يتصدى لمثل هذا الحكم أن ينظر فى شعره الجاهلى والإسلامى كله . ويرى مبلغ اتصال كل منهما ببيئته ، وملاءمته للأوضاع والأحوال التى لابسته ، وتجاوبه مع المناسبات التى دعت إليه ، وتأثيره وتأثره بما حوله ، ومبلغ غناء كل منهما فى موضعه . وتمثيله لعصره ، وجريه على سنن الشعر ، وحظه من لغته ومزاياه . وسينتهى به النظر إلى أن شعره جميعه فى ذلك سواء .

وإذا كان شعره الجاهلى موضع تقدير إجماعى ، فإن شعره الإسلامى لا يقل عنه جودة . فقد جال حسان فى كل أغراض الشعر ، وهام فى وديانه إلا تحسين الخمر ، وتصرف فى سائر الفنون . وأتى بالمعانى الجميلة ، وكانت ديباجته ديباجة عصره ، وأسلوبه أسلوب الفحول الجاهليين والمخضرمين . فإذا عرض لنا فى مدحه أو رثائه ما هو دون المعروف من فنه منزلة ، فقد بيّنا سبب ذلك ومرجعه . وإذا عرض لنا فى هجائه جانب من المآخذ ، فعلينا أن نذكر أنه كان فى الإسلام جندياً شاكى السلاح ، سيفه لسانه . ومذوده بيانه ، فأكثر من الهجاء إكثاراً شُغل به . وشَغل به الناس ، حتى بلغ شعره الإسلامى منه فى نحو عشر سنين أضعافاً مضاعفة لما قاله قبل الإسلام فى عشرات السنين[٢] .

---

(١) انظر فصل « شعره الجاهلى » .

(٢) انظر الجدول رقم ٢ .

هذا الإكثار لم يدع لحسان فرصة الروية والتنقيح ، وكثيراً ما صاحبه الارتجال ، فحال بينه وبين إجالة النظر ومراجعة القول . فإذا أضفت إليهما ما يظنه البعض من احتمال ضعيف لتسرب بعض ما وضع عليه إلى ديوانه أدركت أن ما أحصيناه عليه من المآخذ يرجع أغلبه إلى الإكثار والارتجال ، لا إلى نقص اعترى موهبة الشاعر . أو قيام عقبة من روح الإسلام اعترضت طريقه . وهذا هو الذى يعنينا من تفصيل هذا الموضوع ؛ فليس إسلام حسان . وليس الإسلام فى ذاته ، هو الذى أدى إلى ما سموه ليناً وضعفاً فى شعره الإسلامى . ونسميه ويسميه المنصفون هفوات ومآخذ .

هذه المآخذ كان لابد من أن يتعرض لها أى شاعر يقوم مقام حسان ، أحاط به خصوم لُدّ مقاول . فتناولوه من كل جانب طعناً فى الدين . وهجاء للرسول والمسلمين . فوقف دونهم يرسل مقالته ، وينثر فيهم كنانته . ولو أن الخطيئة احتمل حمله لرقت جزالة لفظه ، وتطامنت فخامته ، وشابت شوائبُ نقاء ديباجته ، فقد كان كزهير من عبيد الشعر الذين يتأنقون فيه ، ويتأتون له ، ويصنعون منه الحولى المنقح .

وليس إكثار حسان من الهجاء ، وارتجاله إياه ، من ذنبه أو من عيبه . وإنما هو من مآثره ومحاسنه ، فهذا اللون من الشعر كانت حاجة المسلمين إليه ماحة قائمة . تدعو إلى الإسراع بالنضح به ، وتُعجل عن تدبره والتروى فيه .

وعندى أن هذه المآخذ إن عابت فنون الشعر ، أو عابت على التحقيق الهجاء فى شعر غيره من الشعراء ، فإن من الإنصاف ألا تعد عيبا على مثل هذا الشاعر ، فى مثل ما كان فيه من موالاة الدفاع عن الإسلام ، واصطناع هذه القذائف ، يرمى بها أعداء الله ورسوله ، فليس من همّ المحارب أن يصقل القذيفة أو يزخرفها . وإنما همه الأهم انتقاء مادتها ، وإحكام تصويبها ، وموالاة قذفها . ولو أن الحادثات ترفقت بحسان ، فتمهلت فى سيرها ، وأبطأت فى كرها من حوله وفرها ، لأتاحت له فرصة الروية والاختيار ، ولخلا شعره من أكثر ما شابه ، ولرأيت له فى كل مجال القول المعجب والعبارة الجزلة . إلى جانب المعنى القوى والصور المبتكرة .

وربما كان غرض الأصمعى بالليونة البعد عن المبالغة والجنوح إلى الكذب ،

وترك الافتنان فى القول والاتجاه إلى المعانى الجاهلية وتزيين الباطل وتحسين اللذات ، كما كانت عادة الشعراء ، وكما عرف عندهم من أن أعذب الشعر أكذبه . وهو عندئذ أدنى إلى الحق والصواب . ولعل مما يؤيد هذا ما روى من أن قائلا قال لحسان : لان شعرك فى الإسلام يا أبا الحسام ، فقال : « يا بن أخى ، إن الإسلام يحجز عن الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب »[١] .

ومهما يكن فحسب حسان أنه كان شاعراً فحلا مطبوعاً . سمح القريحة ، عظيم الاعتداد بنفسه وبشاعريته ، فكان يرسل الشعر حين تدعوه دواعيه إرسالا ، لا يبالى معه أن يكون به ما قد يؤخذ عليه ؛ كأن الشعر حقل هو صاحبه ، أو جواد هو راكبه . وأنه سبق الشعراء إلى اتباع مناهج الإسلام . وتخلى فى شعره عما ذمه القرآن . وأنه وقف نفسه على الجهاد بشعره فى سبيل الله ، فنال من أعدائه كل منال . حتى استحق أن يلقب بشاعر الرسول ، وأن يقدمه على غيره من الشعراء ، ويندبه لهجاء المشركين ، والذود عن أعراض المسلمين . ويقيم له منبراً فى مسجده ينشد منه شعره . ويدعو له بالتأييد فيه ، ويقول له : « والله إن كلامك لأشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام » ويقول فيه : « هجاهم حسان فشفى واشتفى » . وأن يندبه بعد ذلك سيدنا عمر للفصل فى خصومات الشعر والشعراء[٢] .

وقد خلف حسان ذخيرة رائعة من جيد الشعر ، سامى بها فحول الجاهلية . وتصدر شعراء الدولة الإسلامية ، فيها قصائد من أحسن ما قيل فى عصر النبوة . تكشف عن حقائق تاريخية ، وتوضح جوانب من النهضة الإسلامية ، وتعين على دراسة التاريخ المحمدى ، وتعطى صورة للشعر والحياة الأدبية التى بعثها الدين الإسلامى الرشيد .

وكان رائداً للشعر السياسى والدينى وشعر النقائض ، على ما سبق بيانه فى المواقف المختلفة . حتى ليبدو أن بعض شعراء هذه الفنون قد تأثروا به ، كالكميت بن زيد والفرزدق وجرير . كما يجوز أن يكون بعض شعراء الحجاز الغزلين قد تأثروا بمنهجه فى تخصيص بعض قصائده بالغزل ، كابن أبى ربيعة والعَرْجى والأحوص وغيرهم .

---

(١) الاستيعاب ص ١٣٠ . أسد الغابة ص ٥ .

(٢) ارجع إلى ص ٢١١ وما بعدها من هذا الكتاب .

وقد رأينا كيف تبعه الأخطل فى وصف الخمر ، وكيف أن أبا نواس والمتنبى أخذا عنه فى المدح ، وأخذ عنه الكميت فى الرثاء ، والحكم الخضرى فى الهجاء . ولا شك فى أنه كان مدرسة هجائية، تأثر بها ونهج نهجها جرير والفرزدق ، وأن نقائضه كانت مثالا احتذياه وتبعاه .

وكان حسان عفيفاً شريفاً ، أريحيًّا جواداً ، أبىّ النفس ، سرىّ الطبع ، نبيل الخلق ، كريم العنصر ، فكان لهذه الفضائل أثرها فى شعره ، وطار صيته فى زمنه كل مطار ، وشرق ذكره وغرب ، واقتحم اسمه حدود الممالك واجتاز القفار ، وزاحم فحول الشعراء ما تبوءوا من مكان ، وقال فى الفخر شعراً دوّى به الزمان ، وأرهف له السمع من جاء بعده من الشعراء . فلو جعلنا فخره لشعره ميزاناً ، ولو نظرنا إليه بعيون معاصريه ، ورأينا نجمه الساطع فى آفاق العروبة والإسلام ، وما صنع الله بشعره فى ميدان الجهاد وساحات النضال ، واختيار الرسول إياه ، واعتراف شعراء العصر له ، لما ترددنا فى وضعه بمكان الصدارة بين الطبقة الأولى من فحول الشعراء .

فإذا نظرنا مرة أخرى إلى بعض شعره ، وقد أعجلته الحوادث عن انتخاله وتصفيته ، ورأيناه بعين مجردة عن الهوى ، غير متأثرة فيه بما مضى ، كان حقيقاً بأن نضعه على رأس الطبقة الثانية من أولئك الفحول .

جدول (١)

إحصاء إجمالى لشعر حسان

الشعر	عدد القطع	قطع أكثر من ١٥ بيتاً	قطع أقل من ١٥ بيتاً	أبيات القصائد
الجاهلى	٥٢	١٣	٣٩	٥٣٩
الإسلامى	١٧٣	١٧	١٥٦	١٢٣٩
المجموع	٢٢٥	٣٠	١٩٥	١٧٧٨

جدول (٢)

إحصاء وموازنة بين شعره الجاهلى وشعره الإسلامى

الشعر	نعر	هجاء		غزل	وصف	فخر	مدح	رثاء	وعظة	تحريض	حكم وأخلاق	إسلاميات	اعتذار	مصدر تاريخى
		مذهب جاهلى	بالكفر											
عدد القصائد جاهلى	٢٧	١٦	–	١٦	١١	٩	٥	١	١	–	٦	١	–	٢
عدد القصائد إسلامى	٣٦	٩٢	١٨	٧	١٥	–	١٤	٢٦	٢١	٥	٧	٢٣	١	٣٣
المجموع	٦٣	١٠٨	١٨	٢٣	٢٦	٩	١٩	٢٧	٢٢	٥	١٣	٢٣	١	٣٥
		١٢٦												

جدول (٣) أ

أغراض عمرو في الجاهلية

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعري المشار إليه بالقصيدة

رقم مسلسل	ترقيم هونبلبك	فخر	هجاء	غزل	وصف	عربات	مدح	رثاء	أغراض أخرى
١	٢	●	●				●		
٢	٤	●		●	●				
٣	٨	●		●	●				
٤	١٠	●		●	●				●
٥	١٢	●							●
٦	١٣	●				●	●		●
٧	١٨	●		●	●	●			●
٨	٢٤	●		●	●	●			
٩	٢٨	●		●					
١٠	٢٩			●	●				
١١	٤٢				●	●			
١٢	٤٣					●			
١٣	٦٩		●						
١٤	٧٠		●						
١٥	٧١		●						
١٦	٧٢		●						
١٧	٧٣		●						
١٨	٧٤		●						
١٩	٨٢		●						
٢٠	٨٦				●				
٢١	٨٧	●			●				
٢٢	٨٩		●						
٢٣	٩٢		●				●	●	
٢٤	٩٣		●						
٢٥	١٠٧				●				
٢٦	١٠٨			●					
٢٧	١١٠	●		●					
٢٨	١١٣	●							
٢٩	١١٤		●						●
٣٠	١١٥								●
مجموع المرات		١٢	١٢	٩	١٠	٥	٣	١	٦

جدول (٣) ب

تابع – أغراض شعره فى الجاهلية

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعرى المشار إليه بالقصيدة

رقم مسلسل	ترقيم المفضليات	فخر	هجاء	غزل	وصف	خمريات	مدح	رثاء	أغراض أخرى
٣١	١١٦	●	●						
٣٢	١١٧	●	●						●
٣٣	١١٨	●							
٣٤	١١٩	●	●						
٣٥	١٢٤			●					●
٣٦	١٣٦	●							●
٣٧	١٣٨	●		●		●			●
٣٨	١٣٩			●					●
٣٩	١٤٥						●		
٤٠	١٤٧	●							
٤١	١٥٢	●		●		●			●
٤٢	١٥٥	●		●					●
٤٣	١٥٨	●	●						
٤٤	١٥٩								●
٤٥	١٦٠	●				●		●	●
٤٦	١٧٦	●							
٤٧	١٧٧								●
٤٨	١٧٨			●					
٤٩	٢١٦	●	●	●					
٥٠	٢١٩		●						
٥١	٢٢٠	●							
٥٢	٢٢٣	●					●		
مجموع المرات		١٥	٦	٧	—	٣	٢	١	١٠
مجموع ما قبله		١٢	١٢	٩	١٠	٥	٣	١	٦
المجموع النهائى		٢٧	١٨	١٦	١٠	٨	٥	٢	١٦

رقم المستجيب	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	مجموع التكرات
الأعمال الحرة			•	•	•		•			•	•	•	•				•	•	•	•	•			•							١٤
الإستشارات	•	•			•	•	•	•	•	•	•	•	•			•	•												•	•	١٥
التأليف													•	•				•	•	•					•		•				٧
التعليم	•													•		•								•							٤
الصحافة	•	•		•		•			•	•			•																		٨
الفنون		•	•					•	•		•																				٥
المحاماة	•	•	•					•		•							•	•					•	•		•		•		•	١٢
الفنيون	•	•	•	•	•	•	•		•	•	•	•			•	•	•							•					•		١٦
عضو البرلمان																															

جدول (٤) :

جدول (٤) ب

تابع – أغراض شعره في الإسلام

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعري المشار إليه بالقصيدة

رقم مسلسل	ترقيم هيرشفيلد	فخر	هجاء	غزل	وصف	مدح	رثاء	إسلاميات	أغراض أخرى
٣١	٤٦		●						
٣٢	٤٧		●						
٣٣	٤٨		●						
٣٤	٤٩		●						
٣٥	٥٠		●						
٣٦	٥١		●						
٣٧	٥٢		●						●
٣٨	٥٣		●						
٣٩	٥٤		●						
٤٠	٥٥		●						
٤١	٢٧		●					●	
٤٢	٣٧		●					●	
٤٣	٥٦	●	●						
٤٤	٥٧					●		●	
٤٥	٥٨		●					●	
٤٦	٥٩		●						
٤٧	٦٠		●						
٤٨	٦١	●	●						●
٤٩	٦٢		●						
٥٠	٦٣	●	●			●		●	
٥١	٦٤		●						
٥٢	٦٥		●						
٥٣	٦٦		●						
٥٤	٦٧		●						
٥٥	٦٨		●					●	
٥٦	٧٥						●		●
٥٧	٧٦	●	●						●
٥٨	٧٧	●							
٥٩	٧٨	●							
٦٠	٧٩	●			●			●	
مجموع المرات		٧	٢٥	—	١	٢	١	٧	٤
مجموع ما قبله		١٦	١٢	٥	٨	٤	٧	١٥	١٤
مجموع إلى رقم		٢٣	٣٧	٥	٩	٦	٨	٢٢	١٨

جدول (٤) ـ

تابع — أغراض شعره فى الإسلام

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعرى المشار إليه بالقصيدة

رقم مسلسل	ترقيم هيرشفلد	فخر	هجاء	غزل	وصف	مدح	رثاء	إسلاميات	أغراض أخرى
٦١	٨٠	●	●						●
٦٢	٨١		●						
٦٣	٨٣		●						●
٦٤	٨٤		●						
٦٥	٨٥								●
٦٦	٨٨						●		●
٦٧	٩٠		●						●
٦٨	٩١							●	
٦٩	٩٤						●		
٧٠	٩٥	●							●
٧١	٩٦		●						●
٧٢	٩٧				●			●	●
٧٣	٩٨		●				●		
٧٤	٩٩		●						
٧٥	١٠٠		●						
٧٦	١٠١		●						
٧٧	١٠٢		●						
٧٨	١٠٣		●						
٧٩	١٠٤					●			
٨٠	١٠٥		●						●
٨١	١٠٦						●		●
٨٢	١٠٩		●						
٨٣	١١١								●
٨٤	١١٢						●		
٨٥	١٢٠		●				●		●
٨٦	١٢١		●						
٨٧	١٢٢	●							
٨٨	١٢٣								●
٨٩	١٢٥				●				●
٩٠	١٢٦		●						
مجموع المرات		٣	١٧	—	٢	١	٦	٢	١٤
مجموع ماقبله		٢٣	٣٧	٥	٩	٦	٨	٢٢	١٨
مجموع المدرج		٢٦	٥٤	٥	١١	٧	١٤	٢٤	٣٢

جدول (٤) د

تابع — أغراض شعره فى الإسلام

المادة ● تشير إلى وجود الفن الشعرى المشار إليه بالقصيدة

رقم سلسل	ترقيم جرنبلد	فخر	هجاء	غزل	وصف	مدح	رثاء	إسلاميات	أغراض أخرى
٩١	١٢٧		●						
٩٢	١٢٨	●	●						
٩٣	١٢٩		●						
٩٤	١٣٠		●						
٩٥	١٣١	●		●					●
٩٦	١٣٢	●					●		
٩٧	١٣٣						●		
٩٨	١٣٤						●		
٩٩	١٣٥						●		
١٠٠	١٣٧	●	●						●
١٠١	١٤٠	●	●						
١٠٢	١٤١		●						
١٠٣	١٤٢		●						
١٠٤	١٤٣	●			●				
١٠٥	١٤٤							●	
١٠٦	١٤٦					●			●
١٠٧	١٤٨						●		
١٠٨	١٤٩								●
١٠٩	١٥٠		●						●
١١٠	١٥١		●						●
١١١	١٥٣					●			
١١٢	١٥٤					●			
١١٣	١٥٦				●				
١١٤	١٥٧						●		
١١٥	١٦١	●	●						
١١٦	١٦٢						●	●	
١١٧	١٦٣						●		●
١١٨	١٦٤						●		●
١١٩	١٦٥						●		
١٢٠	١٦٦	●							
مجموع المرات		٨	١١	١	٢	٣	١٠	٢	٨
مجموع ما قبله		٢٦	٥٤	٥	١١	٧	١٤	٢٤	٣٢
مجموع الى رقم		٣٤	٦٥	٦	١٣	١٠	٢٤	٢٦	٤٠

جدول (٤) ه

تابع – أغراض شعره في الإسلام

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعري المقدار الذي ورد في القصيدة

رقم مسلسل	ترقيم عبد الملك	فخر	هجاء	غزل	وصف	مدح	رثاء	إسلاميات	أغراض أخرى
١٢١	١٦٧				●				●
١٢٢	١٦٨				●				●
١٢٣	١٦٩					●			
١٢٤	١٧٠					●			
١٢٥	١٧١					●			
١٢٦	١٧٢							●	●
١٢٧	١٧٣	●	●						●
١٢٨	١٧٤		●			●			
١٢٩	١٧٥	●	●	●					●
١٣٠	١٧٩		●						
١٣١	١٨٠		●						
١٣٢	١٨١		●						
١٣٣	١٨٢		●						●
١٣٤	١٨٣		●						
١٣٥	١٨٤		●					●	
١٣٦	١٨٥		●						
١٣٧	١٨٦		●						
١٣٨	١٨٧		●						●
١٣٩	١٨٨		●						●
١٤٠	١٨٩		●						
١٤١	١٩١		●						●
١٤٢	١٩٣		●						●
١٤٣	١٩٤		●						
١٤٤	١٩٥		●						●
١٤٥	١٩٦		●						
١٤٦	١٩٧		●						
١٤٧	١٩٨		●						
١٤٨	١٩٩		●						
١٤٩	٢٠٠		●						
١٥٠	٢٠١		●						
مجموع المرات		٢	٢٤	١	٢	٤	—	٢	١١
مجموع ما قبله		٣٤	٦٥	٦	١٣	١٠	٢٤	٢٨	٤٠
مجموع إلى رقم		٣٦	٨٩	٧	١٥	١٤	٢٤	٢٨	٥١

جدول (٤) و

تابع – أغراض شعره في الإسلام

العلامة ● تشير إلى وجود الفن الشعري المشار إليه بالقصيدة

رقم بسيط	الرقم الموحد	فخر	هجاء	غزل	وصف	مدح	رثاء	الإسلاميات	أغراض أخرى
١٥١	٢٠٢						●		●
١٥٢	٢٠٣								●
١٥٣	٢٠٤		●						
١٥٤	٢٠٥		●						
١٥٥	٢٠٦		●						
١٥٦	٢٠٧		●						●
١٥٧	٢٠٨		●						
١٥٨	٢٠٩		●						
١٥٩	٢١٠		●						
١٦٠	٢١١		●						
١٦١	٢١٢		●						
١٦٢	٢١٣		●						
١٦٣	٢١٤		●						●
١٦٤	٢١٥		●						
١٦٥	٢١٧		●						
١٦٦	٢١٨		●						
١٦٧	٢٢١		●						
١٦٨	٢٢٤		●						
١٦٩	٢٢٥		●						
١٧٠	٢٢٦		●						
١٧١	٢٢٧		●						
١٧٢	٢٢٨		●						●
١٧٣	٢٢٩		●						●
مجموع المرات		—	٢١	—	—	—	١	—	٠
مجموع ما قبله		٣٦	٨٩	٧	١٥	١٤	٢٤	٢٨	٥١
المجموع النهائي		٣٦	١١٠	٧	١٥	١٤	٢٥	٢٨	٥٧

جدول (٥)

شعر حسان فى الغزوات والمناسبات الإسلامية

	المناسبة	أرقام القصائد ـ عن هيرشفيلد
١	بدر الكبرى	٣ – ١٥ – ٣٦ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٧ – ٤٩ – ٥٠ – ٥١ – ٥٧ – ٧٦ – ٨٠ – ١٢٨ – ١٣٢ – ١٤٣ – ١٥١ – ١٨٠ – ١٩٥ – ٢٠٣ – ٢٠٧
٢	أحد	٥ – ١١ – ٣٥ – ٣٨ – ٥٥ – ٥٨ – ٦١ – ٨٣ – ١٦٤ – ١٧٥ – ١٨٧ – ٢٠٠ – ٢١٤ – ٢٢٤ – ٢٢٥
٣	الرجيع	٦٦ – ٦٧ – ٦٨ – ٧٥ – ٩٨ – ١٠٦ – ١٢٠ – ٢٠٢
٤	معونة	٤٠ – ٩٤ – ١١١
٥	بدر الموعد	١٦
٦	الخندق	١٤ – ٩٠ – ٩٥
٧	قريظة	٩٦ – ٩٧ – ١٣٢ – ١٦٧ – ١٦٨
٨	ذى قرد	٦٣ – ١٣٧ – ١٦٩
٩	المصطلق	١٤٠ – ١٤٦
١٠	خيبر	١٤٤ – ٢٠١
١١	مؤتة	٢١ – ١٤٨ – ١٦٥
١٢	الفتح	١ – ١٤٢ – ١٤٩
١٣	حنين	٥٤ – ١٣١
١٤	الطائف	١٧
١٥	بعد تبوك	٩ – ١٦١ – ١٦٦
١٦	وفد تميم	٢٢ – ٢٣ – ٢٥
١٧	فى الرسول	١٣٣ – ١٣٤ – ١٥٣ – ١٥٤
١٨	بعد الرسول	(٣٤ – ١٧٢) – ١٣٥ – (٢٠ – ٣٠ – ٣١ – ٣٢ – ٣٣ – ١٥٧ – ١٦٢ – ١٦٣) (١١٢ – ٨٥) – ١٥٦ – (١٠٢ – ١٠٣ – ١٢١ – ١٨٨ – ١٨٩ – ١٩٣) – ١٩٦

عدد الأبيات	٥٤٢		١٢٣٦		١٧٧٨	
البحر	الجاهلى		الإسلامى		المجموع	
	عدد الأبيات	النسبة المئوية	عدد الأبيات	النسبة المئوية	عدد الأبيات	النسبة المئوية
الطويل	١٨٨	٣٥٪	٤٢٤	٣٥٪	٦١٢	٣٤٪
الكامل	٩٤	١٧٪	٢٧٠	٢٢٪	٣٦٤	٢٠٪
البسيط	٦٠	١١٪	٣٠٥	٢٥٪	٣٦٥	٢٠٪
الوافر	٣٧	٧٪	١٣٠	١١٪	١٦٧	٩٪
المتقارب	٢٧	٥٪	٧٨	٦٪	١٠٥	٦٪
الخفيف	٣٤	٦٪	٤٩	٤٪	٨٣	٥٪
الرمل	٣٨	٧٪	٢٢	٢٪	٦٠	٣٪
السريع	٢١	٤٪	٢١	٢٪	٤٢	٢٪
الرجز	٢	٠٫٤٪	٤	٠٫٣٪	٦	٠٫٣٪
المنسرح	٣١	٦٪	—	—	—	٠٫٢٪
المديد	—	—	—	—	—	—
الهزج	—	—	—	—	—	—
المضارع	—	—	—	—	—	—
المقتضب	—	—	—	—	—	—
المجتث	—	—	—	—	—	—
المتدارك	—	—	—	—	—	—

جدول (٦)
البحور والأوزان العروضية